جهود علي بن ربّن الطبري و الجاحظ
في الرد على النصارى
دراسة مقارنة

د. صلاح بن صالح السميح (*)

المقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادَي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم. **أما بعد :**

فقد أضحى علم المقارنة بين الأديان واحداً من أهم المعلوم، والتي تفوق به علماء المسلمين على غيرهم، وقد تشكلت وتنوعت مناهج العلماء في مجادلة أهل الكتاب على النحو الآتي:-

١- المنهج الأول: المنهج التاريخي الوصفي:

وهذا المنهج يقوم على عرض مقالات الأديان بالاستعانة ببعض المعطيات وخاصة المعرفة التاريخية. "ونظراً لأهمية هذا المنهج وضرورته، فإننا نجد المسلمين اهتموا به اهتماماً كبيراً، وخصوه بمؤلفات كثيرة تفوق الحصر منذ القرون الأولى للفكر الإسلامي، فنجد كتب المقالات متنوعة ومختلفة، بعضها يتناول مقالات ملة من الملل والبعض الآخر يتناول فرقة معينة يفصّل القول في مذاهبها وأفكارها، وغيرها يتناول مقالات الأشخاص في فرقة أو مذهب، ويشير إلى مواطن الاختلاف فيها"(١) .

(*) أستاذ مساعد بقسم الدراسات الإسلامية كلية الآداب- جامعة الملك فيصل.

(١) مناهج دراسة الأديان، د/ حمدي الشرقاوي ص (د).

٢-المنهج التحليلي المقارن :

وهذا المنهج يقوم على اختيار الباحث بعض المسائل التي تكون مشتركة بين أكثر من دين، ثم محاولة تحليلها، والمقارنة بينها ليصل إلى نتائج محددة.

٣-المنهج النقدي الجدلي :

وهذا المنهج يقوم على منافسة العلماء لمعتقدات وأصحاب الأديان الأخرى مظهرين ما اشتملت عليه من تناقضات، أو مخالفات للمعقول، أو غير ذلك بالبرهان القاطع والدليل الدافع، وقد اتخذ علماء المسلمين منهج النقد الجدلي مع أصحاب الملل المخالفين لإثبات عقائدهم محددين له قواعده وسماته الخاصة التي تميزه من غيره من المناهج الجدلية الأخرى[١] والحق أن منهجا واحدا لمناقشة اعتقادات النصارى كافة لا يكفي، بل لا بد من توظيف عدة مناهج لتتعاضد بعضها مع بعض للاستيعاب النقدي لاعتقادات النصارى.

ولعل أدق من كتب في هذا الموضوع وأظهر عواره وبيّن فاسده علماء النصارى المهتدين للإسلام الذين عرفوا حقيقة الاعتقادات النصرانية، وعاشوا بين النصارى، وكانوا على دراية كبيرة بهم، لأنهم كانوا ينقلون مباشرة من النصوص الأصلية للكتاب المقدس، وبعد إسلامهم استوعبوا جميع الجوانب المتعلقة بدياناتهم السابقة، وبينوا غموضها وأسرارها في استقراء تام وشامل لجميع اعتقاداتها.

كذلك لعبت المعتزلة دوراً كبيراً لا ينكره إلا جاحد في الدفاع عن الاعتقادات الإسلامية ضد التيارات المختلفة في ذلك الزمان وخاصة الفلسفات اليونانية، والديانات القديمة التي كانت منتشرة في بعض البلدان التي فتحها المسلمون، فإذا كان للجيوش الإسلامية قدم صدق لنشر الإسلام والذود عن حياضه، فإن المعتزلة في ذلك الوقت كانت تذود عن دين الإسلام في معركة

---

(١) انظر : مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي د/ مختار عطا الله ص٣٣.

لكنها ذات اتجاه خاص سلاحها العلم والمعرفة. وفي صدارتهم أبو عثمان الجاحظ في مواجهة شُبَه النصارى .

ومن خلال دراستنا لهذا الموضوع سنطّلع على ردود ابن ربّن الطبري، وأبي عثمان الجاحظ، ونقدهما للنصارى من مصادرها الأصلية، مستفيدين في ذلك مما في المصادر الإسلامية .

اولاً: أهمية الموضوع:

تكمن أهمية هذا الموضوع فى التعريف بعلم مقارنة الأديان، ومعرفة منهاجه، وبيان جهود علماء النصارى المهتدين إلى الإسلام في نقدهم لاعتقادات النصارى، وإظهار جهود علماء المعتزلة في الرد على النصارى متمثلين بأبي عثمان الجاحظ، والذى كان رائدا في ابتكار أفكار نقدية لهذه الديانة، نذكر منها للتمثيل هنا وصفه عقيدة النصارى بالتعقيد وصعوبة تصورها بقوله: " ولو جهدك بكل جهدك، وجمعت كل عقلك لما قدرت عليه حتى تعرف النصرانية"[1]

ثانياً: أسباب اختيار الموضوع:

١-ثراء وعمق وموسوعية كلّ من ابن ربنّ الطبري وأبي عثمان الجاحظ.

٢-عرف ابن ربّن الطبري وأبو عثمان الجاحظ كلاهما من الأوساط العلمية، ولم ينالا من الشهرة في مجال المقارنة بين الأديان، على الرغم من أنهما يعدان من الرواد الأوائل في نقد الأديان، لذا كان من هذا البحث إبراز دورهما في هذا المجال.

٣-الوقوف على جهود ابن ربّن الطبري، وأبي عثمان الجاحظ، والاستفادة من جهودهما للدفاع عن الدين الإسلامي، ومن الدعوة إلى الحوار بين الأديان بالحجة الدامغة وبعيداً عن الردود العاطفية .

(١) المختار في الرد على النصارى، أبو عمرو الجاحظ ص٩٥ .

"وهكذا أدت بنا مقارنة كتب النصارى إلى نتيجة لم تكن نتوقعها في البداية، وهي أن هذا الجدل قد اكتملت معالمه في نهاية القرن الرابع للهجرة، وأن الردود المؤلفة في القرون الموالية إنما كانت تردد ما كتب من القرون الأولي، وخاصة في القرنين الثالث والرابع، ولم تزد في الغالب على التحليل ودعم الاستشهاد بالنصوص أو التعمق في اتجاهات سلكها المتقدمون"(١) .

٤-أصبحت الحاجة ملحة لعلم مقارنة الأديان للتحاور بعلم والمناقشة بحكمة، وذلك لكثرة التيارات الفكرية في عصرنا أكثر من أي وقت مضى .

ثالثاً: أهداف الموضوع :

١- بيان ترجمة ابن ربّن الطبري، وأبي عثمان الجاحظ.

٢- التعرف على جهود ابن ربّن الطبري وأبي عثمان الجاحظ في ردهما على النصارى.

رابعاً: منهج البحث:

طبيعة الموضوع الذى سيتم بإذن الله دراسته تستلزم المنهج الوصفي التحليلي(٢).

خامساً: طريقة التوثيق:

١- عزو الآيات إلى موضعها من القرآن الكريم بذكر اسم السورة ورقم الآية في الهامش.

٢- تخريج الأحاديث النبوية وعزوها إلى مظانها الأصلية، ونقل الحكم عليها ما عدا ما ورد في الصحيحين .

---

(١) الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع، د/ عبد المجيد الشرفي ص٦.

(٢) المنهج الوصفي التحليلي هو: وصف منظم للحقائق، ولميزان مجموعة معينة أو ميدان من ميادين المعرفة المهمة بطريقة موضوعية وصحيحة، انظر: دليل البحث والتقويم، د/ الخطيب ص٦٢.

٣- توثيق المعلومات بذكر اسم الكتاب ثم اسم المؤلف أو اسم شهرته، ثم الجزء والصفحة.

٤- الرجوع للمصادر الأصلية بالإضافة الى الكتب الحديثة.

٥- الاستفادة من مواقع الأنترنت، والتزام الدقة في العزو والتوثيق.

٦- إعداد الفهارس اللازمة.

سادساً: الدراسات السابقة:

كتب العديد من الباحثين بعض الدراسات في الرد على عقائد النصارى، وبيان ما في كتبهم المقدسة من التناقض والانحراف، وممن وجدنا لهم دراسات في هذا الموضوع.

١- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع. للشرفي، وقد تناول فيه الباحث جمع الردود الإسلامية في تلك الحقبة بما يخدم الدين الإسلامي، وسبر أغوار المنهج الحواري بين المسلمين وأهل الكتاب في بداية الحضارة الإسلامية.

٢- مسلمو أهل الكتاب وجهودهم في الدفاع عن القضايا القرآنية، د. عبد الله السحيم، وقد جاء الكتاب في جزأين، ذكر نموذجين فقط ممن أسلم من اليهود، في حين فصّل الحديث عن المهتدين من النصارى .

ويُعني هذا البحث بنموذج من المهتدين يمثله ابن ربّن الطبري، ونموذج آخر من المعتزلة يمثله أبو عثمان الجاحظ، وليس من السهل أن نتحدث عن كل من كتب عن الأديان في الفكر الإسلامي، لذلك كتبنا في كل اتجاه نموذجاً يثبت وجوده وجهوده في الرد على عقائد النصرانية.

سابعاً: خطة البحث:

تتكون خطة البحث من مقدمة، وخمسة مباحث، وخاتمة، وفهارس وهي موزعة على النحو الآتي :

-المبحث الأول: جهود ابن ربن الطبري في الرد على النصارى

المطلب الأول: حياته

المطلب الثاني: إسلامه

المطلب الثالث: مؤلفاته في مقارنة الأديان

-المبحث الثاني: جهود ابن ربّن الطبري في نقد النصرانية

المطلب الأول: نقد ألوهية عيسى عليه السلام

المطلب الثاني: في إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم

-المبحث الثالث: جهود أبي عثمان الجاحظ في الرد على النصارى

المطلب الأول: اسمه ونسبه

المطلب الثاني: العوامل المؤثرة في تكوين ثقافته

المطلب الثالث: مؤلفاته في مقارنة الأديان

-المبحث الرابع: جهوده في نقد النصرانية

المطلب الأول: نقد ألوهية المسيح عليه السلام

المطلب الثاني: نقد سند الإنجيل إلى المسيح

المطلب الثالث: نقد نبوة عيسى عليه السلام

-المبحث الخامس: بين ابن ربن الطبري وأبي عثمان الجاحظ

المبحث الأول: أثر المهتدين على ابن ربّن الطبري

المبحث الثاني: أثر منهج المعتزلة على أبى عثمان الجاحظ

المبحث الأول

جهود ابن ربن الطبري في الرد على النصارى

المطلب الأول: حياته

اختلف المؤرخون وأصحاب كتب التراجم والطبقات في اسمه ومولده. ولكنهم أجمعوا على أنّ عليّ بن سهل ينسب إلى طبرستان التي عاش بها، وعلى هذا تكون نسبته " الطبري" صحيحة.

ولعل من أهم الأسباب الداعية إلى الخلاف في اسمه ومولده: أنه رحمه الله لم يترجم لنفسه وكذلك لم يترجم له تلاميذه.

أولاً: اسمه:

هو أبو الحسين على بن ربّن الطبري[1]، وقد كان لعليّ بن سهل لقبان:-

أولها: المهتدي[2]، وذلك نسبة إلى اهتدائه إلى الدين الإسلامي، وهذه التسمية كانت معروفة، وتُطْلق بالعادة على من يدخل الإسلام من كبار النصارى أو اليهود.

ثانيها: مولى أمير المؤمنين، لقبه بهذا اللقب أحد خلفاء الدولة العباسية – المتوكل على الله – لأنه كان من ندمائه[3] .

واشتهر اسمه ابن ربّن، وربّن لقب والده، وكان والده يُطلق عليه ربّين تعنى المعلم حسب ما فسرها عند ذكره لأبيه، حيث يقول :" وكان أبي من أبناء كتاب مدينة مرو وذوي الأحساب والآداب بها، وكانت له همة في ارتياد البر، وبراعة ونفاذ في كتب الطب والفلسفة، وكان يقدم الطب على صناعة آبائه، ولم

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي ١٤/١٤٥، وفيان الأعيان، ابن خلكان ١٠٩/٥٠.

(٢) ذُكر لقب المهتدى في الصفحة الأولى من الرد على النصارى شهيد باشا علي باستبول رقم١٦٢٨ .

(٣) انظر : الوافي بالوفيات ، صلاح الدين الصفري ١٥١/٢١.

يكن مذهبه فيه التمدح والاكتساب بل التأله والاحتساب فلقب لذلك بربن، وتفسيره عظيم ومعلم"[1].

وكذلك " وربّن هذا كان له تقدم في علم اليهود – والربن والربين والراب – أسماء لمقدمي شريعة اليهود"[2] .

ثانياً:– مولده:

في الحقيقة أن الباحث في كتب التراجم والطبقات، ربما لا يعرف أن يحدد السنة التي ولد فيها عليّ بن ربّن الطبري، لعدة أسباب

ولعل من أهمها: أن كتب التراجم والطبقات لم تعطنا تاريخاً دقيقا لميلاده[3].

فقد ذكرنا أن مولده بطبرستان، ولكن اختلف كثيراً في تاريخ مولده على عدة أقوال:

١- قيل أنه ولد سنة (١٩٢هـ – ٨٠٨م) بمدينة سرو بطركستان[4]

٢- قيل أنه ولد سنة (١٦٢هـ – ٧٧٨م)[5]

٣- قيل أنه ولد سنة (١٥٤هـ – ٧٧٠م)[6]

والراجح أنه ولد في حدود (١٥٤هـ – ٧٧٠م)، وذلك أننا إذا تعقبنا كلام ابن ربّن الطبري نفسه، الذى أورده في كتبه، نجده قد أشار إلى حوادث وقعت في زمانه، يمكن من خلالها أن نستلهم تاريخ ميلاده التقريبي.

---

(١) فردوس الحكمة في الطب، على بن ربّن الطبري ص٨ .

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن إلى أصيبعة ص٤١٦ .

(٣) انظر: أطباء حكماء، عبد الجبار دية ص٧٠.

(٤) انظر: إعلام العرب والمسلمين في الطب على الدفاع ص٢٢.

(٥) انظر: موسوعة علماء العرب والمسلمين وأعلامهم، مصطفي الجيوشي ص٢٦٩.

(٦) انظر: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، محمد حسين كامل ص٣٩٢.

ذكر ابن ربّن الطبري في كتابه الموسوم " الرد على النصارى" أنه أسلم بعد سن السبعين حيث قال: " إني إنما تركت دين النصرانية الذي كنت عليه من أول عمري إلى أن بلغت من العمر سبعين سنة ورغبت في دين الإسلام الحنيف"(١) .

وأشار ابنّ ربن الطبري إلي واقعة تاريخية وقعت في حياته، نقلها في كتابه "فردوس الحكمة"، فقال: إنه رأي بطبرستان ناراً ارتفعت من اليمن ومرت إلى الجربياء شبه أسطوانة غليظة طويلة، فلم يلبث ملك جبالها أن اضطرب أمره وأزعج عن جباله وبلاده، ثم عاد إليها بعد هولٍ قاساه، ونقضٍ دخل عليه في ملكه"(٢).

ذهب الدكتور محمد زبير الصديقي إلى أن هذه الواقعة تتعلق بما وقع بين (ونداد هرمز) ملك طبرستان آنذاك، وموسي ابن الخليفة المهدي الذى كان قائد الجيش الذي أُرسل إلى طبرستان وكان ذلك سنة (١٦٧هـ - ٨٤٧م)(٣).

يمكننا بعد قراءة ما ذكره ابن ربّن الطبري أن نرجح أن مولوده كان في حدود سنة (١٥٤هـ - ٧٧٠م).

ثالثاً: نشأته:

لا نجد ذكراً لأسرة ابن ربّن الطبري في مصادر ترجمته، وهذا يمهد للقول بندرة المعلومات التاريخية عن أسرة ابن ربّن الطبري، إلا أن ذلك لا يعني انعدامها تماماً. فقد ذكر ابن ربّن الطبري، أنه من بيت علم وأدب ودين مسيحي، وتولى بعض أقاربه أهم الأعمال لولاة طبرستان، واستمر عمه بالجدل والبراعة، وألف كتاباً من الرد على أهل الأديان(٤) .

---

(١) الرد على النصارى، ابن الطبري ص٢.

(٢) فردوس الحكمة في الطب ابن الطبري ص٥١٨ .

(٣) المصدر السابق ص٥١٩، فردوس الحكمة في الطب، ابن ربن الطبري ص ٥١٨.

(٤) لنظر: الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ابن ربّن الطبري ص٧.

وكذلك أفادنا ابن القفطي وابن أبي أصيبعة[١] معلومات جيدة من خلالها نستطيع إبراز صورة نشأته.

والده هو أبو على: سهل الطبري، المشهور بربّن، طبيب منجم من أهل طبرستان، وكان بالإضافة ألى علمه بالطب، حكيما، عالما بالهندسة وأنواع الرياضة

قام بترجمة كثير من الكتب عن اللغات اليونانية والسريانية والعبرانية، وكان له تقدم في معرفة الأديان[٢].

رابعاً: وفاته:

اختلف العلماء اختلافا كبيراً في تحديد تاريخ وفاته كاختلافهم في تحديد تاريخ ميلاده إلى أقوال عدة:-

أولاً:- ذهب بعض العلماء إلى أنه توفي في حدود سنة ٢٣٥م[٣].

ثانياً: ذهب آخرون إلى أنه توفي سنة ٢٤٠م [٤].

ثالثاً: القائلون بوفاته سنة ٢٤٧م[٥] .

ورجح إسماعيل باشا البغدادي في (هدية العارفين) أنه توفي في حدود سنة (٢٦٠هـ)[٦] .

وذهب الدكتور عبد المجيد الشرفي إلى أن مسألة وفاته ينبغي أن تبقى مفتوحة[٧] لعدم التمكن من تحديد وقت وفاته بالدقة.

---

(١) انظر: عيون الأبناء في طبقات الأطباء، لابن أبى أصيبعة ٤١/١، وحكماء الإسلام، لابن القفطي ص٢٣١.

(٢) انظر: جهود على بن ربّن الطبري في تأسيس منهج الأديان، خالد متولى ص١٨.

(٣) انظر: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص ٣٩٢.

(٤) مجلة التراث العربي ١٩/١.

(٥) ورد في كتاب تخجيل حرف الإنجيل أنه توفي سنة ٢٥٧.

(٦) هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، اسماعيل باشا ٦٦٩/١.

(٧) الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، عبد المجيد الشرفي ص١٥٧.

المطلب الثاني: إسلامه:

اختلفت كتب التراجم في تحديد ديانة الطبري قبل دخوله الإسلام، حيث ذكرت بعض هذه التراجم أن سهل ربْن الطبري يهودي[١]، وهو والد علي بن ربن الطبري، فيكون ولده على بن ربّن الطبري[٢] يهوديا على دين والده، إلا أن تصريح ابن ربْن الطبري بنبذ عن حياته ذكرها في العديد من المواطن، تعارض القول بيهوديته، وتقطع في الأمر دون أدنى شبهة، حيث لا قول بعد إقرار على بن ربّن بنفسه، بقوله: " ولئلا يقول قائل منهم أو من غيرهم، إني إنما تركت دين النصرانية الذي كنت عليه"[٣]، وله في مخاطبة النصارى عبارات منها "يا بني عمي"، وقال : "وقد كنت أقول فيها مثل الذى قال غيري من النصارى"[٤].

وعلى ما سبق ذكره، يتبين أن هذه النصوص قاطعة بأن ابن ربّن الطبري كان من معتنقي الديانة النصرانية.

ذكرت بعض كتب التراجم والطبقات أنْ ابن ربن الطبري أسلم على يد المعتصم[٥]، وعمره سبعون سنة، وظهر في الحضرة[٦] فضله فأدخله المتوكل

---

(١) انظر: تاريخ الحكماء، لأبي الحسن القفطي، تصنيف حوليوس لبيرة ص٣٣١.

(٢) انظر: الدين والدولة لابن ربّن الطبري ص٤٤.

(٣) الدولة والدين، لابن ربّن الطبري ص ١٤٣.

(٤) المصدر السابق ص ١٠٨.

(٥) أبو اسحاق محمد المعتصم، ثامن خلفاء العباسيين، تمتد فترة حكمه ما بين عام (٢١٨هـ إلى عام ٢٧٧)، انظر: تاريخ الدولة العباسية محمد سهيل طقوش ص ١٣٨.

(٦) مصطلح صوفي: بمعنى المراتب الكلية، له مقامات مختلفة. انظر: مصطلحات التصوف الإسلامي، رفيق العجم ص٢٨٩.

في جملة ندمائه، وأوردت بعض التراجم أنه أسلم على يد المتوكل[1]، وهذا ما يرجعه عادل نويهض[2].

والراجح أنه أسلم على يد المعتصم، وهو الذى مال إليه عبد المجيد الشرفي[3]، وأما السبب الرئيسي الذى دعا ابن ربّن الطبري أن يدخل الإسلام، فقد أقر بها بنفسه وهو يتكلم عن تجربته من خلال نص قصير يذكره بمقدمة كتابه (الرد على النصارى).

"ولقد دعاني القديم من ذلك إلى أن ألفت كتابي هذا للتنصل من دين النصرانية والإعذار والنصيحة للنصارى كافة، ولئلا يقول قائل منهم، أو من غيرهم : إني تركتُ دين النصرانية، الذى كنت عليه من أول عمرى إلى أن بلغت من العمر سبعين سنة، ورغبت في دين الإسلام الحنيفي ؛ كي أبيع دُّينا بدين، أو سروراً بغرور ؛ بل ما توخيتُ فيما ألّفت من كتابي هذا إلا: القربَى إلى الله عز وجل، والإنذار إلى كافة النصارى ورجوت أن يكون ذلك على طريق النصيحة لهم، وإن كنت لا أشك أنهم يردون وجوههم عنه وآذانهم، وينقلبون ولا يقبلون..."[4] .

وخلاصة القول في كل ما سبق إلى أن دين ابن ربّن الطبري قبل إسلامه كان الديانة النصرانية، وأن سبب دخوله إلى الإسلام هو اهتداؤه عن قناعة تامة وبصيرة كاملة، وهذا ما يؤكده ابن ربّن الطبري بنفسه عن أسباب تحويله كما في النص السابق.

---

(١) أبو الفضل جعفر المتوكل: عاشر خلفاء العباسيين، تمتد فترة حكمه ما بين (٢٣٢هـــ الى ٢٤٧)، انظر: تاريخ الدولة العباسية، محمد سهيل ص١٥٥.

(٢) انظر: الدين والدولة ، لابن ربّن الطبري ص١٥.

(٣) الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، عبد المجيد الشرفي ص١٥٨.

(٤) الرد على اصناف النصارى، ابن ربّن الطبري ص٤٤.

المطلب الثالث: مؤلفاته في مقارنة الأديان:

من الثابت علميا أن المسلمين لهم السبق في الكتابة في حقل مقارنة الأديان، وهذا رد على من زعم من الغربيين أسبقية الغرب النصراني للمسلمين في علم مقارنة الأديان.

ويمكن للباحث إثبات بطلان ذلك بيسر ودون كثير من العناء والمشقة، فإن الأديان السابقة على الإسلام كلها قامت العلاقة بين أصحابها على التغاضي عن العيوب وعدم الحسم في التفرقة بين الحق والباطل في مجال الاعتقاد.

أما القرآن الكريم فإنه جاء من الوهلة الأولى ليؤكد في مجال العقيدة على مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، كما أنه يعرض عقائد الأديان الأخرى مناقشا إياها بأسلوب حكيم، وحجة بالغة كقول الله تعالى: "**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا**"(١).

وكقوله سبحانه: "**مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**"(٢) .

"والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تعرض عقائد المخالفين ثم ترد عليها بما يكفي ويشفي بمنهج سديد..... مما جعل دوراً كبيراً في تفتيح أذهان المسلمين على هذا الحقل العلمي، وحضهم على الخوض فيه"(٣)

---

(١) سورة النساء: آية ١٧١.

(٢) سورة المائدة: آية ٧٥.

(٣) مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي، د مختار عطا الله ١/٨١ .

" وكذا الأمر بالنسبة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد وجد علماء المسلمين فيها وقائع حدثت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض المخالفين تعلموا منها الحرص الشديد على نصرة التوحيد، وإفحام الخصوم بتتبع مقالاتهم بالنقد وبيان فسادها"(١).

كما أكد القرآن الكريم في غير موضع على ضرورة إرساء قواعد الحرية الدينية، بموجب نصوص قطعية الثبوت والدلالة مُرسخة في عقل المسلم وقلبه ووجدانه تصوره ونظرته إلى الآخر، خارج ديار الإسلام أو داخلها.(٢) قال الله تعالى: (**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**)(٣)، وغير ذلك من الآيات التي تؤكد وجود الحرية الإسلامية والتي خلقت جوا من التسامح الديني والفكري طبع علاقة المسلمين ...، وفي ظل ذلك اندفع المسلمون وغير المسلمين – على السواء – إلى التفاهم والتواصل والتعايش مما نتج عنه – بطبيعة الحال – انفتاح وحوار ومناقشة ما لبث أن اتسع نطاقها ليشمل جانباً من الدراسات المخصصة للتعرف على الأديان، فهماً ووصفاً ونقدا ومقارنة(٤) .

ويعد ابن ربّن الطبري من أوائل من صنفوا في علم الأديان المقارن، بل إنه يعد أحد رواد هذا العلم، وقد تأثر بابن ربّن الطبري ونقل عنه من جاء بعده من المهتدين وكذلك من علماء المسلمين الذين كتبوا في الرد النصارى، وتُعد مصنفات ابن ربّن الطبري من أقدم ما وصلنا في علم الأديان المقارن، وهنا تكمن أهميتها، إذ تعد من اللبنات الأولى له في التراث الإسلامي .

---

(١) المصدر السابق ٨١/١ .

(٢) انظر: مناهج دراسة الأديان بين المتكلمين والفلاسفة، د حمدي الشرقاوي ص ٥٥ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٥٦.

(٤) انظر: مناهج دراسة الأديان بين المتكلمين والفلاسفة ، د حمدي الشرقاوي ص ٥٤.

وكان أول كتبه في نقد الديانة النصرانية هو :

١-الرد على أصناف النصارى:

نُشر هذا الرد بدون تحقيق في بيروت سنة ١٩٥٩[١]، وهو مبتور من الآخر.

وحققه بعد ذلك وقدم له خالد محمد عبده في طبعة كاملة سنة ٢٠٠٥، وهي الطبعة التي اعتمدناها في هذا البحث.

وقد تميزت هذه الرسالة بـــ: " بالسهول والوضوح وعدم الغموض، وعرض الكلام ومقابلته بالفكرة عند الآخر ومراجعته قبل إخراجه إلى حيز الواقع العلمي، إلى جانب العدل والإنصاف واعتماد الدلائل والبراهين، حتى لا يكون الكلام خالياً من الحجة العقلية والأمور المنطقية، متحاشياً بذلك عيوب التصانيف قبله"[٢] .

وعن ما يحتوه الكتاب، فقد ابتدأه المؤلف بمقدمة، أوضح فيها أسباب تأليف الكتاب، ومحتوى الكتاب، ثم قدم بياناً وجيزاً لشريعة الإسلام ودينهما، ثم انتقل إلى سؤال النصارى قصد إفحامهم عن سبع مسائل، سماها السبع المسكتات، تتعلق بالتثليث وألوهية المسيح، وتناقض شريعة الإيمان، وألحق هذه المسائل باثني عشر وجها لا اختلاف فيها بين المسلمين والنصارى، وكلها تهم التوحيد وصفات الله، وعاد بعد ذلك إلى بيان أنواع الفساد والبطلان، وحصرها في سبعة أوجه، ثم بيان دلائل صحة الشريعة وتفضلها، وفي الأخير تكلم عن ألوهية المسيح بين الحقيقة والافتراء، والأب، والابن، والروح القدوس [٣].

---

(١) الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، د عبد المجيد الشرفي، ص ١٥٩.

(٢) جهود على ابن ربّن الطبري في تأسيس مقارنة الأديان، د خالد متولى ص٢٩ .

(٣) اتجاهات نقد الديانة المسيحية، عمر صكحك ص٩٥.

علماً بأن هذا الكتاب لم يذكره أحد ممن ترجم لابن ربّن الطبري ولكنه صرح بنفسه في كتاب الدين والدولة بتأليفه له[1].

وبعد ذلك تتوالي أعمال ابن ربّن الطبري بمجادلة النصارى، فيصور ذلك بشيء من التفاصيل في كتابه الأكبر الدين والدولة.

٢-الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم :

وهذا الكتاب قام بتأليفه بعد تأليفه لكتاب الرد على أصناف النصارى، صنفه بعد أن تمكن من علوم شتى وخاصة المذاهب والأديان.

" ويظهر أن هذا الكتاب ما هو إلا استكمال لما شرع فيه في الكتاب الأول، وذلك لأنه أراد أن يرد على أهل ملته – النصارى – في الكتاب الأول، ثم يثني في هذا الكتاب على بني عمه اليهود ويبين فساد دينهم وبطلانه"[2].

ولقي هذا الكتاب عناية من بعض المستشرقين والباحثين[3]، وقد قام أحد الباحثين العرب بتحقيقه وهو عادل نويهض، وصدرت طبعة الكتاب عن دار الآفاق الجديدة، بيروت سنة ١٩٧٣.

المحتوى:

يقع الكتاب في ٢٤٠ صفحة، وقد ابتدأه بمقدمة بيّن فيها سبب تأليفه، أرجع فيها مخالفة من خالف الإسلام إلى أربع علل:

١- الشك في خبره صلى الله عليه وسلم.

٢- الأنفة والعزة.

٣- التقليد والإلف.

٤- البلادة والغباوة.

---

(١) انظر: الرد على أصناف النصارى، ابن ربّن الطبري ص١٩.

(٢) مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية د. محمد السحيم ١٧٢/١ .

(٣) نشره الفونس متجنا (١٨٨١هـ - ١٩٣٧م) من ترجمته إلى الإنجليزية في مانشستر سنة ١٩٢١، وطبع في سنة ١٩٢٣م .

وأقام بعد ذلك عشر شهادات تؤدى من وجهة نظره إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، ويعتبرها مطابقة لخصاله وشاهدة على نبوته، **وعليها مدار الكتاب هي:**

١-أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا إلى التوحيد، ودعوته موافقة لدعوة جميع الأنبياء.

٢-ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من فضائل، ومحمود في سننه وشرائعه.

٣-آيات النبي صلى الله عليه وسلم التي ردها وجحدها أهل الكتاب.

٤-حكاية النبي صلى الله عليه وسلم لأمور غائبة وقعت من زمانه.

٥-نبوءات تنبأ بها تمت بعد وفاته.

٦-أن الكتاب الذي نزل عليه صلى الله عليه وسلم هو آية للنبوة.

٧-أن غلبة النبي صلى الله عليه وسلم للأمم آية من آيات النبوة.

٨-خيار الأمم الداعين إلى دينه والمصدقين لأمره.

٩-أن النبي صلى الله عليه وسلم هو خاتم الانبياء والمرسلين، ولو لم يظهره الله تعالى لبطلت نبوءات الانبياء.

١٠-تنبأ الأنبياء عليهم السلام بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره بزمن طويل.

وأشار ابن ربّن الطبري في نهاية الكتاب إلى تفضيل المسلمين على المجوس والزنادقة والنصارى واليهود، وأشار إشارات لطيفة إلى دعوة النصارى إلى الإسلام، حامداً لله تعالى على ما هداه إليه، وداعياً للخليفة المتوكل على ما ندبه له.

* *

المبحث الثاني

جهود ابن ربّن الطبري في نقد النصرانية

امتاز ابن ربّن الطبري في جهوده في مجادلة أهل الكتاب ونقد عقائدهم بمنهج جدلي يناقش فيه معتقدات وأصحاب الأديان مبيناً ما تشتمل عليه من تناقضات أو مخالفات للعقول، معتمداً في ذلك على التقصي والبحث في أناجيل النصارى، ليبرهن على ما يقول في بيان ودحض شبهاتهم.

المطلب الأول: نقد ألوهية عيسى عليه السلام:

إن الباحث في الديانة النصرانية يجد اختلافاً كثيراً عند فرقهم في شخصية عيسى عليه السلام، بين بشريته، وألوهيته، فبعض الفرق النصرانية وصفته بالصفات الإنسانية، ويسمونه ناسوتاً، بينما هناك من الفرق النصرانية، من وصفته بالصفات الإلهية، ويسمونه لاهوتا، ومن قالت: اتحد اللاهوت بالناسوت.

ولا يعنى ذلك أن النصارى يؤمنون بأن المسيح عليه السلام مجرد نبي، فإن جميع فرقهم يؤمنون بألوهيته، من الجانب الآخر هم مختلفون في ماهية شخصيته، قبل مجمع نيقية[1] ٣٢٥م، لم يكن الإيمان بألوهية عيسى عليه السلام محل إجماع النصارى، ومنذ أن انعقد هذا المجمع أصبح الإيمان بألوهيته عيسى عليه السلام الموقف الرسمي للكنيسة.

قال ابن ربّن الطبري في كتابه (الرد على أصناف النصارى) بأن النصارى " تؤمن بأربعة آلهة وهم الأب – الابن – روح القدس، إنسان أزلي،

---

(١) مجمع نيقية:- أهم المجامع، وأبعدها أثراً، وأكبرها شأناً، وأعظمها ذكراً، والمجامع هي عبارة عن اجتماعات عالمية نصرانية تعقد حسب الضرورة لمراجعة أهم القضايا النصرانية، والخروج برأي واحد. انظر: محاضرات من النصرانية، محمد أبو زهرة ص١٢١.

وهو يسوع المسيح حيث إن شريعة إيمانهم تنطق بأن يسوع المسيح مخلوق وليس بخالق كما يقولون"[1].

وخلاصة القول في هذا النص فإن ابن ربّن الطبري أضاف إلهاً رابعاً غير الثلاثة المعروفة عند فرق النصارى، ألا هو الانسان الأزلي.

وظهرت جهود ابن ربّن الطبري في الرد على النصارى من خلال مناقشته لعقائدهم في ألوهية عيسى عليه السلام وبيان تهافتها **من خلال ثلاث طرائق :**

١-الرجوع إلى القرآن الكريم لثبوت صحة أخباره، وفي حديث القرآن الكريم عن العقائد النصرانية خاصة نلاحظ أنه اشتمل على كافة المسائل النافية لألوهية عيسى عليه السلام.

٢-المعرفة العميقة بالكتاب المقدس، ومعالجة النصوص الإنجيلية بما يوافقها في الإسلام.

٣-مناقشة عقائد النصارى بالمنهج النقدي العقلي القائم على المنطق والجدال.

وسنرى بإذن الله تعالى فيما سيأتي الردود على ما يؤمن به النصارى من ألوهيته عيسى عليه السلام.

أولاً: الأدلة النقلية:

١-القرآن الكريم:

استدل ابن ربّن الطبري على عدم ألوهية المسيح عليه السلام بسورة الإخلاص النافية لكل تولد عن الله جل وعلا " وقال فيمن أشرك بالله جل وعز أو اتخذ له ولداً أو نداً : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ[2]"[3] .

---

(١) الرد على أصناف النصارى، ابن ربّن الطبري ص٤٧ .

(٢) سورة الإخلاص.

(٣) الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ابن ربّن الطبري ص٣٤ .

كانت سورة الإخلاص حاضرة في الأذهان، وهي أساس المفارقة المطلقة بين الله عز وجل والإنسان، بين الأزلي والمخلوق.[١]

٢-الكتاب المقدس:

إن نشأة ابن ربّن الطبري في بيئة نصرانية، قد أعطى لكتابته مكانة كبيرة، وخبرة واسعة، ومعرفة دقيقه بالكتاب المقدس، عن النصارى من خلال ما جاء عن عيسى عليه السلام في العهد الجديد باتفاقهم على عبودية عيسى عليه السلام.

وهذا الرأي يوافق ما قاله الحسن ابن أيوب (٣٧٨هـ) " وإذا نظر في الأناجيل وكتب بولص، وغيره ممن يحتج به النصارى، وجد نحواً من عشرين ألف آية مما فيه اسم المسيح، وكلها تنطق بعبودية المسيح، وأنه عبد مربوب، وأن الله اختصه بالكرامات، ما خلا آيات يسيرة مشكلات قد تأولها كل فريق من أولئك الذين وصفوا الشريعة باختيارهم على هواهم، فأخذوا بذلك التأويل الفاسد، وتركوا المعظم الذى ينطق بعبودتيه"[٢].

واستدل ابن ربّن الطبري في نقد ألوهية عيسى عليه السلام بخمسة وخمسين نصاً من العهد الجديد، تدل دلالة واضحة وصريحة على عدم ألوهية عيسى عليه السلام عند النصارى أنفسهم.

وذهب ابن ربّن الطبري إلى رأي من العهد الجديد، يقوم على قبول ما جاء فيه بشرط أن يكون صريح الدلالة على عدم ألوهية المسيح عليه السلام، وأن يكون هذا النص موافقا للعقل، وكذلك أن يكون غير مخالف لعقيدة التوحيد الخالص في الإسلام الذى هو إيمان المسيح عليه السلام نفسه، وإيمان جميع المسلمين "الإيمان بالله الحي الذي لا يموت الواحد الفرد الملك القدوس الجواد

(١) انظر: الرد على النصارى، الجاحظ ص٢٧ .

(٢) الجواب الصحيح عن بدل دين المسيح، ابن تيمية ٣٦١/٢ – ٣٦٢ .

العدل إله ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وإله موسي وعيسى، وسائر النبين وإله الخلق أجمعين"[١] .

وكذلك بيّن ابن ربّن الطبري في كتابه (الرد على أصناف النصارى) وجود اثني عشر وجها يشترط أن تكون في الإله المعبود، وإذا تم مخالفتها بطل الادعاء بألوهية المسيح عليه السلام وثبت أنه بشر مخلوق ليس بخالق " وأزيدكم إيضاحاً وشرحاً، أرجو أن يزيد الله به الحق تأكداً ووجوباً، ويزيد الباطل تهدماً وانتثاراً، وأجعل ذلك اثنى عشر وجهاً لا اختلاف بيننا وبينكم فيها.

الوجه الأول : أن الله قديم فرد لا شريك له

الوجه الثاني : أن الله لا يغفر أن يشرك به وهو الغني الحميد.

الوجه الثالث : انه لا أب، ولا أم، ولا خالات ولا أنساب ولا أتراب.

الوجه الرابع : أنه لا يذرع، ولا يوزن، ولا يحيط به مكان.

الوجه الخامس : أنه لا يقبل الزيادة والنقصان.

الوجه السادس : أنه لا يأكل ولا يشرب ولا يجوع ولا يشبع.

الوجه السابع : أنه لا يقال لشيء من خلقه في قامته وعدد أعضائه وخلقه.

الوجه الثامن : أن الله لا يوصف كنهه ولا يصوره مصوّر.

الوجه التاسع : أن الله لا يسأم ولا يمل ولا تأخذه سنة ولا نوم

الوجه العاشر: أنه محيط بكل شيء علما، ولا يخفي عليه خافية في أرض ولا سماء

الوجه الحادي عشر : أنه غلاّب عزيز ولا يُذل ولا يرهب

الوجه الثاني عشر: أن الله تعالى لا يبلى ولا يموت"[٢]

(١) الرد على أصناف النصارى، ابن ربّن الطبري، تحقيق د خالد عبده .

(٢) الرد على أصناف النصارى، ابن ربّن الطبري، ص ٦٥ – ٦٦ .

ثم يعقب ابن ربّن الطبري على هذه الشرائط بقوله: " اتفقت الأمم الموجودة، والأديان المّسدّدة عليها، أن الله لا يعرف إلا بها ــ ولا يعبر بخلافها، فإن ذكر ذاكرٌ خالقاً بخلاف هذه الوجوه : فيعلم السامع أنه مبطل، وأن الموصوف بغير ما ذكرنا مخلوق وليس بخالق، زمني، وليس بأزلي" .

ويسرد بعد ذلك ابن ربّن الطبري أبرز الشواهد لتدعيم ما ذهب إليه والتي تؤكد فقدان المسيح عيسى ابن مريم للشرائط الإلهية، فتؤكد ذلك باعترافات المسيح عليه السلام بالعبودية لله تعالى هي على التوالي :

سفر الخروج: ٢٩ / ٢٤ / ٢٠ / ١٩ / ٢٠ / ٤٠٢

المزامير: ٥٠ / ١٢ / ١١٥/ ٣ / يوحنا ١/١٨/٠٨/٠٤.

بعد هذه النصوص من الكتاب المقدس، تتضح خبرة ابن ربّن الطبري في نقد النصارى فيما ينسونه إلى الله مما لا يليق بجلاله – تعالى عما يقولون – ما يتعارض من الإنجيل.

وبعد ذلك يعلق ابن ربّن الطبري على نسبتهم التناقض للمسيح عليه السلام بأنهم أخذوا بنصوص الأناجيل التي توهم بألوهية المسيح عليه السلام، وتركوا النصوص التي تدل على عكس ذلك، لذا يرى ابن ربّن الطبري أن المسيح عليه السلام لم يدّع قط الألوهية، لأنه لو فعل ذلك لكان ناقض نفسه: "فإن قال قائل منهم : إن المسيح وحَّد واعترف أنه مبعوث كما في الإنجيل، واعترف في غير موضع أنه الأزلي الخالق، فقط شنع على المسيح عليه السلام أقبح التشنيع، ونسبه إلى التناقض باعترافه مرة بأن الله واحد، وأنه مبعوث، وادعائه بعد ذلك أنه خالق أزلي، والمسيح عليه السلام برىء من ذلك وممن نسبه إلى ما لا يليق بالعقل، لأن الإنجيل نطق أنه قال :" إني لم آتِ أعمل لمشيئتي بل لمشيئة من أرسلني[1]"[2]

(١) اتجاهات نقد الديانة المسيحية، عمر صحكك ص١٢٤.

(٢) الرد على أصناف النصارى، ابن ربّن الطبري ص١٢٤.

ولم يقتصر ابن ربّن الطبري بمناقشة النصارى في نقد ألوهية عيسى بنص واحد، بل أورد عدة نصوص، منها ما جاء في إنجيل متى : " إن الشيطان دعا عيسى أن يسجد له وأراه ممالك الدنيا وزبرجدها وزخرفها، ثم قال: اسجد لي لأجعل هذا كله لك، فقال المسيح عليه السلام : إنه مكتوب ألا تعبد إلا الرب إلهك ولا تسجد لشيء سواه"[1] .

وبعد ذلك يناقش النصارى في ألوهية المسيح على أساس النص السابق بقوله: "فإن كان المفعول به ذلك هو الخالق الأزلي، فقد تردد الخالق إذن مع الشيطان، واتبعه وسار معه ليمتحنه الشيطان . فإن لم يكن المفعول به ذلك خالقاً أزلياً، بطل ما في شريعة الإيمان، التي تقول: إن المسيح خالق أزلي وإله حق قائماً على الملائكة .

والنسطورية – وهم الجرامية [2] عليهم من هذه الحجة مثل ما على أولئك، لأنهم فيما يزعمون أنه لا فرق بين المسيح وبين الله في شيء من الأشياء .... وإنْ لم يكن المتردد المنساق معه – الشيطان – الخالق الأزلي، فهو إذن عبد ابن أمة .

فهذا تفريق بينها بيّن، فكيف زعموا أنه لا بينونة بينهما ولا فروقات ؛ فمن فكَّر في هذا الباب وحده، وأمعن النظر والتدبير، ثم لم يرتدع، ولم يتضح ذلك الحق في قلبه فلا حاجة لله به"[3] .

يتضح من خلال النص السابق لابن ربّن الطبري، أنه لا يميز بين اعتقاد النصارى في ناسوت المسيح ولاهوته، لأنه يعتقد أن الاعتقاد الإسلامي لعيسى

---

(١) متى ٤/٨/١١ .

(٢) الجرامية: هم قوم من المعجم صاروا بالوصل في أوائل الإسلام، والجرموف الذى يلبس فوق الحق. انظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي ص٨٧١.

(٣) الرد على أصناف النصارى ابن ربّن الطبري ص ٧٣-٧٤ .

عليه السلام هو الاعتقاد الوحيد الذى ينبغي أن يكون مرجعاً للحكم على غيره من الاعتقادات الباطلة.

وكذلك من ينظر إلى ما كتبه ابن ربّن الطبري من نقده للنصارى يلاحظ أنه لم يكتفِ بما جاء في العهد الجديد من نصوص، بل نقل من العهد القديم بعض النصوص التي يذكرها النصارى مؤولة لإثبات ألوهية المسيح عليه السلام وقام بنقدها باعتبار المسيح عليه السلام كغيره من الأنبياء فقال :" فالذي قال جبريل الملك لمريم – عليها السلام – على ما وجد في إنجيل لوقا في الفصل الأول منه:–

أن جبريل قال: (السلام عليك أيتها الممتلئة نِعْماً ويسمى ابن الله)[1]

قال : فما من شريعتكم أن الذي تلدين هو خالقك وخالق الدنيا كلها، ولا أن الأزلي الخالق يصير ساكنك ولا قرينك ولا نزيلك، لم يرد على أنه قال : مولوداً مكرماً كبيراً، وأن الله تعالى يعطيه، وأن داود النبي أبوه، وأنه يسمى ابن الله ...... فمن لم يقتصر على ما قال الله عز وجل عن المسيح عليه السلام على لسان جبريل أو زاد عليه أو نقص كان من المعتدين الغاوين .

فأما عن قول جبريل لمريم: " إن الله معك "، فقال لموسي وغيره من الأنبياء: "**إني معكم**"[2]

وقال ليوشح ابن نون : " **إني أكون معك كما كنت مع موسي عبدي**"

وتقول النصارى كلهم : "**إن الله تعالى روح القدس مع كل خطيب يوفقه من خطيبه**"[3] .

---

(١) لوقا ٢٨/١ – ٣٥ .

(٢) تكوين ٢٤/٢٦.

(٣) الرد على أصناف النصارى، ابن ربّن الطبري ص ٦٠ – ٩١ .

وخلاصه القول فيما سبق أن ابن ربّن الطبري نقل في رده على النصارى في نقد ألوهية المسيح عليه السلام من الكتاب المقدس مباشرة دون الرجوع إلى الترجمان، لخبرته بهذه النصوص، وتمكنه من لغاتها القديمة التي كتبت بها.

٣-الأدلة العقلية:

يعد ابن ربّن الطبري من أوائل من استخدم المنهج العقلي في مجادلة الخصوم في اعتقاداتهم، وقد عمل على إظهار هذه الاعتقادات بمظهر لا يمكن أن يقبل عقلاً، وما لا يمكن قبوله عقلا لا تقوم به عقيدة صحيحة.

فلذا كان يبرز ما تحتويه العقيدة النصرانية في ألوهية المسيح عليه السلام من تناقض واضح بين أجرائها، وأن كل ما جاءت به من اعتقاد عن ألوهية المسيح عليه السلام مناف لما يليق من وحدانية الله عز وجل: " أول الشريعة: تؤمن بالله الواحد الأب، مالك كل شيء، صانع جميع ما يرى وما لا يرى..

وحذفوا ذكر الله عندها واستأنفوا ذكرها وقالوا: "ونؤمن بالرب المسيح إله حق من إله حق من جوهر أبيه" فهذا نقض الأول لأنهم قالوا: "تؤمن بالله الواحد" ثم قالوا عقب ذلك وعلى نسقه:

" ونؤمن بأن يسوع المسيح هو خالق كل شيء بيده"

فأثبتوا ها هنا خالقاً آخر غير الخالق الأول.

وقالوا فيها بأن يسوع :" إله حق من إله حق من جوهر أبيه"، وقد أقر يسوع أنه لحم ودم وعظم – تعالى الله عن ذلك علواً كبيرًا – .

وقالوا من الأمانة أن يسوع إله حق من جوهر أبيه، ثم تذكر أنه نزل وتجّسم الروح القدوس، وإنما تجسم منْ لم يكن جسمان، فأما من أقّر بأنه جسم فما معنى تجسمه"[١] .

---

(١) الرد على أصناف النصارى، ابن ربّن الطبري ص ٨٣ – ٨٤.

وبعد هذه النصوص يتبين لنا منهج ابن ربّن الطبري العقلي، في إلزام النصارى بجملة من الإلزامات، ولا ريب أن هذا المنهج من تفنيد الحجج يعد سداً للشبهات التي يتعلق بها الخصم، منها " إن المسيح إن كان أزلياً خالقاً ؟ من شريعة إيمانهم لزمهم أن يجعلوا بعض الرب خالقاً أزلياً وبعضا ميتاً مخلوقاً، لأن المسيح مقرّ بأنه لحم ودم، فاللحم والدم إذن خالقان أزليان، وقد أنهما أنها يتولدان عن الأغذية والأشربة، وتلك الأغذية والأشربة أجزاء من أجزاء الدنيا، فخالق الدنيا كلها جزء من أجزاء الدنيا، وذلك الجزء بعينه هو خالق نفسه أيضاً، لأنه جزء من الدنيا وهو خالقها كلها .

فهو أشنع ما يكون من البهتان، وأبعد ما يكون من المعقول. وبعض الشيء لا يكون موجوداً إلا بعد وجوده كله، وما ليس بموجود ولا بمعقول فهو لا شيء، فخالق الدنيا عندهم معدوم، غير موجود ومجهول غير معقول.(١)

ومنها كذلك " متى ثبت أن المسيح مخلوق، بطلت شريعة إيمانهم التي تقول : إنه إله حق من إله حق، وأنه خالق كل شيء، لأن الزمان شيء من الأشياء المخلوقة والزمان قبل يسوع، الذى خلق الأشياء المخلوقة، فكيف يجوز أن يكون الزمان قبل خالق الزمان، والمكان محيط مبتدع المكان؟"

وكان ابن ربّن الطبري يعلق على النتائج المترتبة على تلك الإلزامات بمثل قوله: "ولا أدري ما الذى دعا النصارى إلى أن يجعلوا أمور الدنيا والآخرة معكوسة ومنكوسة، ولا أدرى لمن أفتوا في ذلك من الأنبياء والحكماء، ومن ذا الذى دان به منذ قامت الدنيا، لأن من قال إن اللحم والدم كان منهما الخالق، فصار الخالق الأزلي لحماً ودماً، وصار القديم لا نهاية له مشاهداً محدوداً مذروعاً، والذى لا يموت صار ميتا، والذى صلب ومات، قد صار إلها لا أول له ولا آخر .

---

(١) الرد على أصناف النصارى، ابن ربن الطبري، ص٥٩ .

فقد قلب النصارى بهذا المقول الأشياء كلها، فجعلوا سافها أعلاها، وهذا قول من مسه خبل وغلبه، أو عمى وسكر"(١)

فخلاصة القول في هذا المبحث، أن ابن ربّن الطبري يرى أن القول باعتقاد ألوهية المسيح عليه السلام – على حسب زعم النصارى – ضرباً من الخيال وبعيداً جداً عن المعقول، وخروجاً عن المفهوم، وأن سبب وقوع النصارى في هذه العقيدة الفاسدة ثقتهم في ما وضع أحبارهم ورهبانهم من اعتقادات باطلة.

المطلب الثاني : في إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

اعتمد ابن ربّن الطبري على المنهج التحليلي التاريخي في معالجته لكثير من نصوص الكتاب المقدس ليستخرج منها البشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم.

ويمكن أن نجمل البشارات التي ذكرها ابن ربّن الطبري في اثنين:

١-أن نبيا محمدًا صلى الله عليه وسلم هو خاتم الانبياء والمرسلين، وهذا الأمر هو ما أكده القرآن الكريم من بشارات الكتاب المقدس، وأنه صلى الله عليه وسلم لو ما بعث لبطلت نبوات جميع الأنبياء فيه.(٢)

٢-أن جميع الأنبياء عليهم السلام قد تنبوا لنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثه بزمن طويل، وهذا يبين تحريف النصارى الفاسد للكتاب المقدس الذى ذكر التبشير بالنبي صلى الله عليه وسلم إما تصريحاً أو تلميحاً.

ولكثرة البشارات التي ذكرها(٣) ابن ربن الطبري، نكتفي بذكر قليل منها، وتنقسم إلى قسمين :–

---

(١) المصدر السابق ص٧٩ .

(٢) انظر: الدين والدولة في إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، ابن ربّن الطبري ص١٣٠.

(٣) انظر: الدين والدولة ابن ربن الطبري ص ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٧، ١٣٩، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١.

أولاً: البشارات الواردة في العهد القديم:

عمل ابن ربّن على استخراج بشارات كثيرة بالنبي صلى الله عليه وسلم من أنبياء الله تعالى كما جاءت في العهد القديم على وجوه عديدة:

منها البشارة الأولى كما في سفر التكوين:- " قد أجبت دعاءك في إسماعيل وباركت عليه وكثرته وعظمته جداً جداً، وسيلد اثنى عشر عظيما[١]".

ووجه الدلالة عند ابن ربن في هذا النص، أنه جعل الوعد بالبركة والتعظيم الوادرين في نص العهد القديم لنبي الله اسماعيل نافداً لا محالة لأنه أمر الله تعالى.

ثم أفرد شبهة النصارى في هذا الباب وقام بتفنيدها ومناقشتها.

البشارة الثانية :

استشهد ابن ربن الطبري بنص آخر في سفر التكوين يخص هاجر لما هربت من سارة، فحين تراءى لها ملك الله أخبرها بالبشارة تسلية على قلبها قائلاً: " يا هاجر يا أمة سارة من أين أقبلت وأين ترتدين، قالت هاجر مجيبة له: أهرب من سيدتي سارة، قال لها الرب: ارجعي إلى سيدتك واخضعي لها، فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة وها أنتِ تحبلين وتلدين ابنا وتسميه إسماعيل، لأن الله قد سمع تبتلك وخشوعك، وهو يكون غير الناس وتكون يده فوق يد الجميع ويد الجميع مبسوطة إليه ويكون مسكنه على تخوم جميع إخوته"[٢] .

ويرى ابن ربّن الطبري أن هذا النص صريح في الدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم – لأنه عليه السلام خاتم النبيين وكانت له اليد العليا على جميع الناس، ولا يتحقق وعد الله لهاجر إلا بذلك[٣] .

---

(١) خصص للبشارات بابين فى كتابه (الدين والدولة) هما: الباب التاسع والعاشر .

(٢) التكوين ١٦/١٠-١٢، انظر: الدين والدولة، ابن ربّن الطبري ص ١٣١.

(٣) انظر: الدين والدولة، ابن ربّن الطبري ص ١٣٣.

ثانياً: البشارات الواردة في العهد الجديد:

إذا كان ابن ربّن الطبري قد وجد كماً من البشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم في العهد القديم، فإنه عثر في العهد الجديد على نزر قليل من البشارات التي وردت عن المسيح عليه السلام عن نبي يأتي من بعده، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ويمكن هنا أن نستخلص مما عرضه ابن ربّن شيئًا من البشارات من خلال العهد الجديد بثلاثة نصوص من إنجيل يوحنا تبشر بنوة محمد صلى الله عليه وسلم:-

١- "**إن الفارقليط روح الحق الذى يرسله أبي باسمي يعلمكم كل شيء**"(١)

ويعقب ابن ربّن على هذا النص بقوله: " فالفارقليط الذى يرسله الله بعد المسيح عليه السلام مُصدقاً لاسم المسيح عليه السلام، هو الذى علم الناس كل شيء، لم يكونوا علموه من قبل، ولم يكن من تلاميذ المسيح عليه السلام إلى دهرنا الذى علّم الناس، شيئاً غير الذى كان عليه المسيح، فالفار قليط الذى علم الناس ما لم يكونوا يعلمونه هو النبي صلى الله عليه وسلم، والقرآن هو العلم الذي سماه المسيح عليه السلام (كل شيء)"(٢)

٢-" إن الفارقليط لن يجيئكم ما لم أذهب، فإذا جاء وبّخ العالم على الخطيئة ولا يقول من تلقاء نفسه شيئاً، لكنه يسوسكم بالحق ويخبركم بالحوادث والغيوب".

ومن ثم يعقب ابن ربن الطبري على هذا النص ليثبت بشارة المسيح عليه السلام بنوة النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: " فأما تأويل قوله: إنه يرسله باسمي، فإنه لما سُمّى المسيح بفارقليط، وسُمّى محّمد بهذا الاسم، لم ينكر من

---

(١) يوحنا: ١٤/١٦.

(٢) الدين والدولة، ابن ربّن الطبري ص ١٨٤.

المسيح قوله: إنه يرسله باسمي....... فقل: ما يوجد ذكر المسيح عليه السلام في باب من كتب الأنبياء عليهم السلام إلا كان ذكر النبي صلى الله عليه وسلم متصلاً به، يتلوه ويشفعه لأنه جاء بعده"(١) .

٣- " **إني سائل أبي أن يرسل إليكم فارقليطا آخر يكون معكم إلى الأبد**"(٢)

وخلاصة القول أن استشهاد ابن ربن بتلك النصوص السابقة عن يوحنا بقوله: "قال المسيح عليه السلام في ذلك – أي بنوة المسيح على النبي صلى الله عليه وسلم – ما هو مقيد مخلد."(٣).

أن ما قاله يوحنا مصدقاً ومؤكداً لما جاء في القرآن الكريم من تبشير عيسى بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كما في سورة الصف " **وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**" (٤) .

* *

(١) الدين والدولة، ابن ربّن الطبري ص ١٨٥.

(٢) يوحنا: ١٦: ١٤ – ١٦ .

(٣) الدين والدولة، ابن ربّن الطبري.

(٤) سورة الصف ٦ .

المبحث الثالث

جهود أبي عثمان الجاحظ في الرد على النصارى

المطلب الأول : اسمه ونسبه:

اختلف الباحثون في بعض معالم حياة الجاحظ وأصله، وتاريخ مولده ومكانه، على الرغم من المكانة العالية والشهرة الاجتماعية والفكرية التي بلغها الجاحظ.

أولاً اسمه :

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني البصري المكنى بأبي عثمان، وسمّى بالجاحظ بسبب نتوء واضح من حدقتيه، فلقب بالجاحظ وفي الحقيقة أن هذا اللقب التصق به أكثر من اسمه وطارت شهرته بالآفاق.

أما ولادته فلا نستطيع أن نحددها بالضبط متى كانت، لاختلاف المؤرخين في ذلك، إلا أن ياقوت الحموي ذكر أن الجاحظ قال : " أنا أسن من أبى نواس بسنة، ولدت في أول خمسين ومئة، وولد في آخرها"[١] .

وذهب بعض الباحثين إلى أن ولادته كانت سنة ١٥٥هـ، وجعلها بعضهم سنة ١٥٩، ولكن أغلب الباحثين يرون أن تاريخ ميلاده الصحيح هو عام ١٦٠هـ.

أما وفاته فلم أجد من شك في أنها كانت بالبصرة سنة ٢٥٥هـ.[٢]

وكما اختلف المؤرّخون في تاريخ الولادة، اختلفوا كذلك في تحديد أصله على ثلاثة أقوال:

---

(١) معجم الأدباء، ياقوت الحموي ١٠١/٥ .

(٢) انظر ترجمته في الفهرست ٢٠٨، وتاريخ بغداد ٢١٢/١٢، وسير الذهبي ٥٢٦/١١ وغير ذلك.

١-أنّه عربي صرف من بني كنانة، وكنانة قبيلة عربية الأصل ترجع إلى قبيلة مضر، وكان الجاحظ يلقب بالكناني .

٢-أنه من الموالي، أعجمي الأصل.

٣-أنه متحدر من الزنج[١] .

المطلب الثاني : العوامل المؤثرة في تكوين ثقافته:

امتازت الفترة التي عاش فيها الجاحظ من تاريخ الخلافة العباسية بميزات عديدة، لعل من أهمها ذلك التطور المعرفي الهائل الذى ظهر عن الالتقاء بالأوساط العملية الأجنبية ذات التوجهات المختلفة والثقافات العربية الإسلامية.

ولما كان الجاحظ يدين في تكوين ثقافته العملية للبيئة التي نشأ فيها، كان لزاماً علينا أن نبين كيف كان لها الأثر في تكوين شخصيته.

إن المتأمل في العصر العباسي يرى تعدد الثقافات تعدداً ملحوظا، وازدهرت ازدهاراً لم تعهده الحضارة الإسلامية على امتداد عصورها التاريخية، ولما كانت ثقافة أي أمّة من الأمم مرتبطة بجميع جوانب حياتها، دينية، واجتماعية .....[٢] "فلقد كان العصر العباسي الأول من أنسب العصور ملائمة لحركة التوسع والفتوح، التي كانت طابع العصر الأموي"[٣]

إن السبب الرئيسي في دخول ثقافات مختلفة في العراق في ذلك الوقت، كان دخول عدد من الأمم غير الإسلامية في دين الإسلام، وما تبعه من الاندماج معهم عن الطريق السكن، والزواج والسفر والتجارة، وكل ذلك تم في العصر العباسي الأول.[٤]

---

(١) انظر: ميزان الاعتدال الذهبي ٥٢٦/٣، والبداية والنهاية، ابن كثير ١٩/١١.

(٢) انظر: الفكر التربوي في كتابات الجاحظ، محمد القراز ص٧٤.

(٣) الخلافة العباسية، أحمد شلبي ٢٣٣/٣.

(٤) انظر: الفكر التربوي في كتابات الجاحظ، محمد القراز ص٧٠

ظهرت في ذلك العصر: "أربع ثقافات، كان لها الأثر الأكبر في عقول الناس، وهي: الثقافة الفارسية، والثقافة اليونانية، والثقافة الهندية، والثقافة العربّية، كما كانت هناك ثقافات دينّية أهمها : اليهودية والنصرانية والإسلامية".

وأرجع كثير من الباحثين سبب انتشار هذه الثقافات المتباينة في العصر العباسي الأول إلى حركة الترجمة، وخاصّة ترجمة الكتب اليونانية والهندية والفارسية إلى اللغة العربية[١].

كان العصر العباسي من العصور الإسلامية الأولى التى ترجمت فيها كتب الثقافات المختلفة، وزاد في ذلك معاشرة المسلمين لغيرهم من الطوائف الأخرى، فحيث "ازداد الاحتكاك، والامتزاج بين العرب وغير العرب، والتفاعل بين الفلسفة الإسلامية والحضارات الأجنبية، بدأ الإقبال على الحياة، والإقبال على العلم"[٢] .

ولعل الثقافات الأجنبية المختلفة في عصر الجاحظ، تركت أثرا في فكر الجاحظ بصفة عامة، لكنها لم تستطع أن تؤثر تأثيراً كليا في فكره، بل بقي فكره عربيا إسلامياً وإن تأثر بفكر المعتزلة في حياته العلمية.

ويمكن أن نلخص العوامل المؤثرة في تكوين ثقافته على النحو الآتي:

أولاً: حلقات العلم في الكّتاب:

كان نشأة الجاحظ في بيئة فقيرة، بسبب موت أبيه وهو صغير، وقامت بتربيته أمه، وكانت قصيرة اليد ومحدودة الموارد، ومع ذلك كله فقد كان يذهب إلى الكتّاب، يتعلم ما كانت الكتاتيب تعلمه صبيان الطبقة الفقيرة من أمثال أولاد القصابين[٣] .

---

(١) ضحى الإسلام، أحمد أمين ١/١٦٣.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام السياسي والاجتماعي حسن إبراهيم حسن ص٣٣٢.

(٣) المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، محمد عويس ص١٨.

ونترك الجاحظ يتحدث عن نفسه بتردده على حلقات العلم في الكتّاب " رأيت كلباً مرّة في الحيّ، ونحن في الكتّاب، فعرض له صبي يسمى مهدياً من أولاد القصابين". وهو قائم يمحو لوحه، فعضّ وجهه، فخرق اللحم ففقع ثنيته دون موضع الجفن من عينه اليسرى الذى دون العظم إلى شطر خده، فرمى به ملقيا على وجهه، وجانب شدقه، وترك مقلته صحيحة، وخرج منه من الدم ما ظننت أنه لا يعيش معه، وبقى الغلام مبهوتاً قائماً لا ينسب، وأسكته الفزع، وبقي طائر القلب، ثم خيّط ذلك الموضع، ورأيته بعد ذلك بشهر، وقد عاد إلى الكتّاب. "[١]

ويتّبين مما تقدم اتجاه الجاحظ إلى الكتّاب – بالرغم من كونه فقيراً، وأن الفقر لم يكن عائقا له عن تعلمه.

ثانيا: حلقات العلم في المساجد :

كانت المساجد أشبه بجامعات مفتوحة الأبواب، لجميع العلوم، والتي كانت في الحقيقة المصدر الثاني من مصادر ثقافة الجاحظ، إذ كان يستمع فيها إلى محاضرات العلماء.

معنى هذا أن المسجد ساير أحداث المجتمع البصري وعايشه، وكان نبض المجتمع، ولما سادت ألوان اللهو والترف، الذي نتج عن الثراء الفاحش، والتحرر الفكري والعقائدي، استنكر المسجد كل هذا، وظهرت فيه مجالس الزّهاد والصوفية والقصاص، وقد كان المسجد من عوامل ظهور حركة المعتزلة.[٢]

وهناك شواهد واضحة تدل دلالة قطعية على تردد الجاحظ على حلق العلم في المسجد. ومن ذلك:

---

(١) الحيوان، أبو عثمان الجاحظ ١٤/٢.

(٢) الجاحظ: حياته: وآثاره، طه الحاجري ١٠٣/٣ .

ما ورد في قصة المسجدين من قوله: " قال أصحاب الجمع والمنع، وقد كان المذهب عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب، وكالحلف الذى يجمع على التناحر، وكانوا إذا التقوا في حلقهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه، التماساً للفائدة واستماعاً بذكره"(١) .

ثالثاً : سوق المربد(٢):

وذكر بعض المؤرخين أن الجاحظ تلقى الفصاحة شفاهاً في المربد من شيوخ الأدب والعلم الذين كانوا يأتون إليه من كل حدب وصوب، إذ كانوا يجلسون فيستمع لهم تلاميذهم، ويأخذون عنهم ما شاءوا ففهموا الحياة العربيّة واللغة العربية فهماً واسعاً وصحيحاً.(٣)

وهناك شواهد عدة على تردد الجاحظ إلى سوق المربد، أكتفي بذكر واحدة على سبيل المثال: "وقد أدركت المسجدين والمربدين. ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب.... وأشعار اليهود، والأشعار المنصفات، فإنهم كانوا لا يعدونّه من الرواة. "(٤)

رابعاً: المجالس العلمّية:

إن الدور والقصور – في عصر الجاحظ – كان لها دور كبير مؤثر في إحياء البيئة العلمية.

لذا كان الجاحظ لا يغفل أهمية هذه المجالس العلمية، فقد حضرها وتأثر بشيوخ المعتزلة الذين كانوا يحضرون هذه المجالس ودرس عليهم.

---

(١) البخلاء: أبو عثمان الجاحظ ص٤٧ .

(٢) المربد: هو أحد أسواق البصرة، تبوأ مكاناً خطيراً في الحياة الأدبية والعلمية فكان لا بد للمتأدب من غشيانه والتردد في جنبانه، انظر: الجاحظ حياته وآثاره، طه الحاجرى ص١٠٠ .

(٣) انظر: معجم الأدباء إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب ياقوت الحموي ٢١١٧/٥.

(٤) البيان والتبيان، أبو عثمان الجاحظ ٦١/١ – ٦٢.

من الشواهد الدالة على تردد الجاحظ على المجالس العملية التي كانت تعقد في الدور ما ذكره عن نفسه " أنه دخل على إسحاق بن سليمان الهاشمي بعد عزله، فوجده في بيته يمين كتبه ومن حوله الكتب والمساطر والمحابر وخُيّل لي أن موقعه كان أهيب من موقعه وهو والٍ."(١)

خامساً:- دور الوراقين :

قال بعض الباحثين في معرض ذكره للعوامل المؤثرة في نشأه فكر الجاحظ، أن دور الوراقين كانت من أكبر المؤثرات التي تركت بصمتها في الجاحظ " إن الجاحظ كان يكتري دور الكتب ليقرأ فيها، حتى قيل إنه لم يُر مَن أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب إلا استوفي قراءته، كائنا ما كان حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر"(٢).

المطلب الثالث: مؤلفاته في مقارنة الأديان:

أولاً: المختار في الرد على النصارى:

تعددت اتجاهات مؤلفات الجاحظ وتنوعت موضوعتها على نحو واضح وبيّن، مما يجد فيها القارئ أصنافاً مختلفة من العلوم والآداب والمعارف، ومن تلك العلوم : ألف الجاحظ في الرد على النصارى رسالة، طبعت أربع طبقات مختلفة فيما أعرف :

١-**الطبعة الأولى:** كانت على هامش كتاب " الكامل" للمبرد.

٢-**الطبعة الثانية:** نشرها المستشرق يوشح فنْكل، وربشَر.

٣-**الطبعة الثالثة:** نشرها الأستاذ عبد السلام هارون وكانت هذه الرسالة ضمن غيرها من رسائل الجاحظ .

---

(١) الحيوان: أبو عثمان الجاحظ، ١/٦١ – ٦٢ .

(٢) الفهرست، ابن النديم ص١٦٩ .

٤-**الطبعة الرابعة** : نشرت طبعة مستقلة بتحقيق الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي مع دراسة تحليلية تقويمية، وسيكون بإذن الله تعالى رجوعي في هذا البحث إليها، وهى في خمس وتسعين صفحة من القطع المتوسط.

ولقيت هذه الرسالة عناية كبيرة من بعض الباحثين، لأنها تعتبر من أقدم ما وصلنا من الرسائل في علم مقارنة الأديان.

" إن اهتمام علم من أعلام الثقافة العربية الإسلامية كالجاحظ، بالأغراض المسيحية في هذا الرد المفرد وفي مواضع متفرقة من مؤلفاته ليدل دلالة واضحة على أن الجدل الإسلامي المسيحي لم يكن محل اهتمام علماء مختصين أو من درجة ثانية، ولا من نصيب " المهتدين" فحسب، وقد وصلنا رده على النصارى ناقصاً من اختيارات عبيد الله بن حسبان[١] ونشر ثلاث مرات .

ولا شك فى أنه كتبه قبل ٢٣٢ إذ هو يحيل عليه في الحيوان[٢] ومما يدل على نسبة هذه الرسالة إلى الجاحظ ما أشار إليه في كتاب "الحيوان" بقوله: "كتابي على النصارى واليهود"[٣] .

وكذلك ما ذكره القاضي عبد الجبار أن للجاحظ رسالتين في الرد على النصارى، وهما " الرسالة العسلية"، " المختار في الرد على النصارى"[٤].

وهذا الرسالة كتبت من أجل الرد على النصارى وهذا الأمر واضح من عنوانها، وقد خصصها الجاحظ من أولها إلى آخرها لهذا الأمر، وإن كانت بها بعض الردود على اليهود إلا أن كاتبها قصد بهذه الرسالة كسر النصرانية.[٥]

---

(١) لم أجد من ترجم له.

(٢) الفكر الإسلامي في الرد النصارى إلى نهاية القرن الرابع، د. عبد المجيد الشرفي ص ١٦٩ – ١٧٠.

(٣) الحيوان، أبو عثمان الجاحظ ٩/١٥ .

(٤) انظر: تثبيت دلائل النبوة، تحقيق د/ عبد الكريم عثمان ١٩٨/١ .

(٥) انظر: المختار في الرد على النصارى، د/ محمد الشرقاوي ص ١١٥ .

وكذلك بيّن الجاحظ القصد من تأليف هذه الرسالة بقوله: " ونحن نعوذ بالله من التكلف وانتحال ما لا نحسن، ونسأله القصد في القول والعمل، وأن يكون ذلك لوجهه، ولنصرة دينه إنه قريب مجيب"(١) .

وقد كان حرص الجاحظ كبيراً على مكانة الدولة الإسلامية، لما رأى تغلل النصارى في مفاصل الحكومات " فإن هذه الأمة لم تبتل باليهود ولا المجوس ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى" وعلل الجاحظ ذلك بقوله: "وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا، والضعيف بالإسناد من رواياتنا والمتشابه من آي كتابنا، ثم يخلون بضعفائنا، ويسألون عنها عوامنا"(٢) .

" هذه هي بعض الأوضاع الخاطئة التي لم تعجب الجاحظ، فكانت دافعاً لأن يكتب رسالته ليصحح تلك المفاهيم، والقارئ لكلام الجاحظ في هذه القضية يلمس نبرة الألم مما آل إليه أمر الحكام مع هؤلاء النصارى، فبعد أن عدد ما يقوم به النصارى من أفعال مخالفة لأحكامهم في الشريعة الإسلامية كعدم التزامهم بدفع الجزية، وسب المسلمين، وضربهم، وغير ذلك، يقول في نهاية كلامه في هذه القضية: " ولم لا يفعلون ذلك؟ وأكثر(٣)"(٤) .

ومما سبق يتبين دفاع الجاحظ عن المعتقدات الإسلامية في مواجهة عنيفة وقوية لشُبه النصارى، وقدم رسالة ذات أهمية عظيمة في الرد على النصارى، بيّنت طبيعة العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب، وخاصة الأوضاع الاجتماعية التي كانت سائدة في عصره، كما أن هذه الرسالة كشفت عن جانب مهم تميزت به مؤلفات المعتزلة عموماً، والجاحظ بوجه خاص كونه أديباً.

---

(١) المصدر السابق ٥٨.

(٢) المصدر السابق ص ٦٥.

(٣) المصدر السابق ص ٦٦.

(٤) مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي د/ مختار عطا الله ص ٩٧ .

المبحث الرابع

جهوده في نقد النصرانية

المطلب الأول: نقد ألوهية المسيح عليه السلام:

لقد شهد عصر الجاحظ هجوماً لاهوتياً فيه تحد صارخ للمسلمين، فكان هذا الهجوم أمراً محفزاً لعلماء المسلمين ومنظريه للتصدي له، بكل قوة يدعمها الحق والحجة الدامغة والمناهج العلمية لمقارنة الأديان، فقام الجاحظ بكتابة أول رسالة جدلية، وصلت إلينا – على حد علمنا – ضد النصارى، وبعدها توالت جهود علماء الإسلام بتصنيف الكتب والمجادلات المفحمة، والمؤلفات الكثيرة لأسماء لامعة كالقاضي عبد الجبار، والجويني، والغزالي، وابن حزم... وغيرهم الكثير..

في حقيقة الأمر كانت تلك المجادلات بسيطة في بداية الأمر، وبعدها نشط النصارى للعمل ضد الإسلام بقوة، معتمدين في هجومهم على الإسلام على المنطق والفلسفة، وكان اتجاههم إلى تصنيف الكتب الجدلية التي تستهدف جوهر الإسلام، وتنشر الدعاوى الزائفة حول معتقداته، فقام الجاحظ باستخدام طريقة السبر والتقسيم في جدله مع النصارى حول ألوهية المسيح عليه السلام فقال لهم: " لا يخلو المسيح إما أن يكون إنساناً بلا إله، أو إلها بلا إنسان، أو إلهاً وإنساناً"(١) فهذه الوجوه الثلاثة الممكنة ثم نقض الجاحظ القول بأنه إله بلا إنسان بقوله: " فإن زعموا أنه كان إلها بلا إنسان، قلنا لهم : فهو الذى كان صغيراً فشب والتحى، والذي كان يأكل ويشرب وينجو(٢)، ويبول، وقُتل – بزعمكم –

(١) المختار في الرد على النصارى، أبو عثمان الجاحظ ص ٨٩ .

(٢) النجو: ما يخرج من البطن من ريح وغيره انظر: لسان العرب .

وصلب، والدته مريم وأرضعته، أم غيره هو الذى كان يأكل ويشرب على ما وصفنا......"[1]

والناظر في هذه الأوصاف يجدها أوصافا إنسانية، فكيف يكون إلها بلا إنسان؟

ونقض الجاحظ أيضاً مقولة النصارى بأن المسيح عليه السلام كان إلهًا وإنسانًا كان متبوعاً بإجابة على طريقة القسمة العقلية " فأي شيء معنى الإنسان إلا ما وصفنا وعددنا ؟... وكيف يكون إلها بلا إنسان وهو الموصوف بجميع صفات الإنسان؟"[2]

ونقض الجاحظ أيضاً قول النصارى بأن المسيح عليه السلام كان إلها وإنسانا، بسؤال أتبعه بإجابة على طريقة القسمة العقلية كذلك بقوله: " خبرونا عن اللاهوت أكان فيه وفي غيره أم كان فيه دون غيره؟..."[3]

" وليس هناك وجه ثالث للإجابة عن هذا السؤال، فإذا ثبت فساد الوجهين المطروحين ثبت فساد القول الأصلي الذى بنيا عليه وأخذا منه، وهذه هي الطريقة الثانية من القسمة العقلية ......، والوجه الأول وهو أن اللاهوت كان فيه وفي غيره فاسد لأن المسيح عليه السلام عندئذ ليس أولى بأن يكون خالقاً ويتسمى إلهاً من غيره، والوجه الثاني وهو أنه كان فيه دون غيره فاسد أيضاً لأنه يجعل اللاهوت جسماً، وبذلك يكون القول بأن المسيح إنسان وإله فاسد أيضا، وبذلك يظل الاحتمالان القائلان بأن المسيح إله بلا إنسان أو أن المسيح إنسان بلا إله، وهو عين ما يريد الجاحظ إثباته"[4]

---

(١) المختار في الرد على النصارى، أبو عثمان الجاحظ ص٨٩ .

(٢) المختار في الرد على النصارى، أبو عثمان الجاحظ، ص ٨٩ .

(٣) المصدر السابق ٨٩ .

(٤) مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي، د/ مختار عطا الله ص ١٣٨ .

وكذلك أيضا نرى الجاحظ ينقد عقيدة النصارى التي تتصل بطبيعة المسيح عليه السلام، ويقرر بشرية عيسى عليه السلام وعبوديته لله تعالى بقوله: " إذا كان الله تعالى قد اتخذ عبداً من عباده خليلاً، فهل يجوز أن يتخذ عبداً من عباده ولداً، يريد بذلك إظهار رحمته له، وحميته إياه وحسن تربيته وتأديبه له ولطف منزلته منه"[١]

ولم يفت الجاحظ أن يشير إلى كثرة الاختلافات بين النصارى في ألوهية المسيح عليه السلام بقوله: " ولو جهدت بكل جهدك، وجمعت كل عقلك أن تفهم قولهم في المسيح، لما قدرت عليه، حتى تعرف به حدّ النصرانية، وخاصة قولهم في الإلهية، وكيف نقدر على ذلك ؛ وأنت لو خلوت ونصرانى نسطورى فسألته عن قولهم من المسيح، لقال لك قولاً، ثم إن خلوت بأخيه لأمه وأبيه وهو نسطوري مثله، فسألته عن قولهم من المسيح، لأتاك بخلاف قول أخيه وضده. وكذلك جميع الملكانية واليعقوبية، ولذلك صرنا نعقل حقيقة النصرانية، كما نعرف جميع الأديان، على أنهم يزعمون أن الدين لا يخرج في القياس، ولا يقوم على المسائل، ولا يثبت في الامتحان، وإنما هو بالتسليم لما في الكتب والتقليد للأسلاف، ولعمرى إنّ من كان دينه دينهم ليجب عليه أن يعتذر بعذرهم.[٢]

ومما سبق يتضح أن الجاحظ كان من أوائل العلماء في مقارنة الأديان الذين بينوا صعوبة وتعقيد العقيدة النصرانية " يلفت الجاحظ الأذهان إلى مسألة في غاية الخطورة ألا وهي غموض قولهم من المسيح عليه السلام، وتعقده وتدابره وتعانده، وكان الجاحظ أول من ناقش هذه النقطة، وأخذها عنه علماء المسلمين"[٣]

---

(١) المختار في الرد على النصارى، أبو عثمان الجاحظ ص ٧٢ .

(٢) المختار في الرد على النصارى، ص ٦٨، ٦٩ .

(٣) المختار في الرد على النصارى مع دراسة تحليلية تقويمية، د/ محمد الشرقاوي ص٢٢.

المطلب الثاني: نقد سند الإنجيل إلى المسيح عليه السلام

من أهم المسائل التي تطرق لها الجاحظ في رسالته الموسومة " المختار في الرد على النصارى"، الطعن في أصحاب الأناجيل الأربعة وعدم اتصالهم بعيسى عليه السلام، فالأناجيل ليست وحياً كما هو الحال بالنسبة للقرآن، فهي في الحقيقة لا تعدو أن تكون قصصاً محكية عن عيسى عليه السلام، فالرابط الذى يربط النصارى بجميع طوائفهم بعيسى عليه السلام وتعاليم دينه هم الأربعة الذين كتبوا الوصايا ونقلوا تعاليم دين المسيح عليه السلام، ومن هنا جاء قول الجاحظ بانقطاع سند النصرانية إلى المسيح عليه السلام " إنهم إنما قبلوا دينهم عن أربعة أنفس: اثنان منهم من الحواريين بزعمهم، يوحنا ومتى، واثنان من المسيحية[١] وهما: مارقش (مرقس) ولوقش، (لوقا)، وهؤلاء لا يؤمن عليهم الغلط، ولا النسيان، ولا تعمد الكذب، ولا التواطؤ على الأمور، والاصطلاح على أقسام الرياسة، وتسليم كل واحد لصاحبه حصته التي شرطها له"[٢].

ورد الجاحظ بعد هذا النص على زعم النصارى صدق الذين كتبوا الأناجيل "كانوا أفضل من أن يتعمدوا الكذب وأحفظ من أن ينسوا، وأعلى من أن يغلطوا في دين الله تعالى أو يضيعوا عهده"[٣] بقوله: " إن اختلاف رواياتهم في الإنجيل، وتضاد معاني كتبهم، واختلافهم في نفس المسيح عليه السلام، مع اختلاف شرائعهم دليل على صحة قولنا فيهم، وغفلتكم عنهم"[٤] .

---

(١) أي ممن استجابوا لدعاة النصرانية بعد رفع المسيح عليه السلام.

(٢) المختار في الرد على النصارى أبو عثمان الجاحظ ص ٧١.

(٣) المصدر السابق ص ٧١.

(٤) المصدر السابق، ص ٧١ .

وبعد هذا النص يؤكد الجاحظ على إمكان قول أصحاب الأناجيل الأربعة بالباطل والكذب: "وما يذكر في مثل لوقش أن يقول باطلاً، وليس من الحواريين، وقد كان يهودياً قبل ذلك بأيام يسيرة"[1] .

وخلاصة القول في هذا المبحث، أن الجاحظ يركز فكرته عن سند الأناجيل الأربعة ليبين أن أصحابها ليسوا من حواريي المسيح وإن زعم النصارى أن اثنين منهم من الحواريين، وبعد ذلك قد يعتي بعضهم الغلط أو النسيان، أو التواطؤ على الكذب، وكذلك يناقض الجاحظ دعوى النصارى أفضلية أصحاب الأناجيل الأربعة، وعلو منزلتهم، باختلاف شرائعهم مع اختلافهم في عيسى عليه السلام.

وقد صدّق كثير من الباحثين اللاهوتيين النصارى المعاصرين رأي الجاحظ الذاهب إلى أن كتّاب الأناجيل جميعاً ليسوا من الحواريين.[2]

المطلب الثالث: نقده بنّوة عيسى عليه السلام لله تعالى:

زعم النصارى أن المسيح عيسى ابن مريم ابن الله، وأن هذه البنوة حقيقة، وكان قليل منهم يرى أنها بنوة مجازية.

فقام الجاحظ عند هذه المسألة بوقفة نقدية استخدم فيها طريقة تقسيم الكلام على الخصم، فإنه قسم الكلام بقوله: "فلا يخلو المولى في رفع عبده وإكرامه من أحد أمرين: إما أن يكون لا يقدر على كرامته إلا بهوان نفسه، أو يكون على ذلك قادراً مع وفارة العظمة وتمام البهاء"[3] .

وبعد ذلك أثبت الجاحظ أن الوجهين منفيان على الله بقوله: "وإن كان لا يقدر على رفع غيره إلا بأن ينقص من قدر نفسه فهذا هو العجز وضيق الذرْع،

---

(١) الرد على أصناف النصارى، ص ٧١ .

(٢) انظر: الأناجيل ومتنها، د محمد الشرقاوي ص ١٠ .

(٣) انظر: المختار في الرد على النصارى، أبو عثمان الجاحظ، ص٣٨ .

وإن كان على ذلك قادراً، فآثر ابتذال نفسه، والحط من شرفه فهذا هو الجهل الذى لا يحتمل... والوجهان على الله عزو جل منفيان"[1] .

من هذا النص يلزم أن اتخاذ الله المسيح عليه السلام ولداً له على سبيل التكريم لا يصح ولا يجوز على الله هو المراد تثبته.

ويرى الجاحظ أن النصوص التي يستشهد بها أهل الكتاب من الكتاب المقدس على هذه المسألة، إنما هي من الحقيقة مجرد أوهام ودعاوى منهم على التوراة والإنجيل، والزبور، رافضا أن تكون هذه النصوص من الكتب حقيقة بقوله: " وكان – (يقصد المتكلم) – يجوّز دعوى أهل الكتاب على التوراة والإنجيل والزبور وكتب الأنبياء صلوات الله عليهم في قولهم:

١- إن الله قال: إسرائيل بكري، أي هو أول من تبنيت من خلقي.

٢-وأنه قال لداود: " سيولد لك غلام يسمى لي ابناً وأسمى له أباً.

٣-وأن المسيح عليه السلام، قال في الإنجيل: " أنا أذهب إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم.

وأن المسيح عليه السلام أمر الحواريين أن يقولوا في صلاتهم: " أبانا (الذي) في السماء تقدس اسمك"[2].

وبعد ذلك نرى الجاحظ يعقب على هذه النصوص من الكتاب المقدس بقوله: "هذه أمور عجيبة ومذاهب شنيعة، تدل على سوء عبارات اليهود، وسوء تأويل أصحاب الكتب، وجعلهم مجازات الكلام وتصاريف اللغات ونقل لغة إلى لغة، وما يجوز على الله وما لا يجوز، وسبب هذا التأويل كله الغي والتقليد واعتقاد التشبيه[3] .

---

(١) انظر: المصدر السابق .

(٢) المختار في الرد على النصارى، أبو عثمان الجاحظ ص ٧٢ – ٧٣ .

(٣) المختار في الرد على النصارى أبو عثمان الجاحظ ص ٧٣ .

وخلاصة القول في هذه المسألة أن رأي الجاحظ في عدم تجويز البنوة، حقيقة أو مجازاً لله عز وجل، مؤيداً من القرآن الكريم بقول الله تعالى: "وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا"[1]، وكذلك هذا القول فيه انسجام مع مذهبه الكلامي الذى يرى أن الله تعالى مخالف للحوداث مخالفة تامة كاملة مطلقة.

فقام بعد ذلك بناء على مذهبه بتأول النصوص التي توهم ذلك.

وبعد ذلك دلل الجاحظ على صحة قوله بعدة وجوه، نذكر منها على سبيل المثال:

".ووجه آخر تعرفون به صحة قولي، وصواب مذهبي، وذلك أن الله تبارك وتعالى، لو علم أنه قد كان فيما أنزل من كتبه على بني إسرائيل أن أباكم كان بكري، وأنكم أبناء بكري، لما كان يغضب عليكم إذ قالوا: "نحن أبناء الله" فكيف لا يكون ابن الله ابنه، وهذا من تمام الإكرام وكمال المحبة؟.. ولا سيما إن كان قال في التوراة: "بنو إسرائيل أبناء بكري"[2].

وبعد هذا النص يلزم الجاحظ النصارى بعدة إلزامات تبطل عقيدتهم بقوله: "والقول بأن الله يكون أباً وجداً وأخاً وعماً، للنصارى ألزم، وإن كان للأخرين لازماً، لأن النصارى تزعم أن الله هو المسيح بن مريم عليه السلام، وأن المسيح قال للحواريين: يا إخواني...، فلو كان للحواريين أولاد، لجاز أن يكون الله عمهم ... فهم لا يمنعون من أن يكون الله تبارك وتعالى أباً وجداً وعماً"[3].

**

المبحث الخامس

(١) المصدر السابق ٧٤ .

(٢) المختار في الرد على أصناف النصارى، ص٧٤.

(٣) المختار في الرد على النصارى، أبو عثمان الجاحظ، ص٧٥.

بين ابن ربن الطبري وأبى عثمان الجاحظ

إنه لا يُمكنني أن أنكر تأثر كل من ابن ربن الطبري وأبي عثمان الجاحظ بمن سبقوهما في حقل مقارنة الأديان، وخاصة أهل الكتاب على العموم، ومن يزعم خلاف ذلك فقد جانبه الصواب، إذ كان لكل واحد منهما ملامح تجعله مختلفا عن الآخر، بل عن غيره من المفكرين.

وذلك أن ابن ربن الطبري لم يعرض مُطلقا للجاحظ لا في مجال الجدل الديني ولا غيره من المجالات المختلفة، فابن ربّن ليس من مصادر الجاحظ المباشرة أو غير المباشرة للنصرانية، على الرغم من أن ابن ربّن كان معاصراً للجاحظ.

ويمكن أن نقطع بتأثر ابن ربن الطبري وأبي عثمان الجاحظ بسابقيهما من علماء الجدل الديني مع أهل الكتاب، لكنه تأثر اقتباس لا متابعة، والبون شاسع بينهما.

المطلب الأول: أثر منهج المهتدين على ابن ربّن الطبري:

تميز منهج المهتدين من أهل الكتاب للإسلام بأنه ضم ثلة من علماء أهل الكتاب لأنهم أقدر الناس على تمحيص عقائد ملتهم السابقة، وكشف حقها من باطلها، لأن هؤلاء العلماء نبتوا في رحابها، ومارسوا شعائرها، ودرسوا كتبها المقدسة، فهم أقدر الناس على فهم هذه الديانات، ومن هؤلاء العلماء ابن ربّن الطبري.

ويمكن إجمال أثر منهج المهتدين على ابن ربّن الطبري فيما يلي:

أولاً:- المعرفة الدقيقة والعميقة بالكتاب المقدس

ولا يشك عاقل في أن المهتدين للإسلام، كانوا على علم واسع، ومعرفة حقيقية لكل جوانب الكتاب المقدس، لأنهم كانوا ينقلون النص مباشرة من الكتاب المقدس، نظراً لعلمهم بهذه النصوص وتمكنهم من لغاتها الأصلية القديمة التي

كتبت بها "وهذا التمكن اللغوي جعل ترجماتهم مشرقة بيّنة بعيدة عن الركاكة والغثاثة والغموض، شأن الترجمات الأخرى سابقها ولاحقتها، وكما أن هذا قد مكنهم من مقارنة النص الواحد مع أكثر من نسخة ولغة مما يظهر كثرة اختلاف النسخ، واختلاف الترجمات مع ضياع الأصل المترجم عنه"[١].

وتظهر خبرة ابن ربّن الطبري العميقة بالكتاب المقدس، ولغاته التي دوّن بها من خلال متابعته لبعض آياته، وكشفه اختلاف ترجماتها من لغة إلى أخري.

ومثّل ابن ربن بمثال جاء في المزمور الثاني من قوله: " أقام الله في جماعة الآلهة"[٢] وهذا- كما يقول – هو نص النسخة العبرية، فأما من نقله إلى السريانية، فقد حرفه فقال : (أقام الله في جماعة الملائكة)[٣].

ومما سبق يتضح خبرة ابن ربّن الطبري بنصوص الكتاب المقدس واختلافها من لغة إلى أخرى سواء كانت اللغة عبرانية أو سريانية .

ثانياً: الاستقراء والشمول:

تكاد تكون هذه السمة من أهم السمات المميزة لمناهج المهتدين، لأنهم استوعبوا جميع جوانب دينهم السابق، فقاموا بمعالجة جميع القضايا المتعلقة بالنصرانية، وكشفوا عوارها وقاموا بالرد عليها.

إن المتأمل للموضوعات التي عالجها ابن ربن الطبري تتضح فيها السمة البارزة لمناهج المهتدين، فقد عرض في كتابه (الرد على أصناف النصارى) لاعتقادات متباينة، فصل القول فيها:

وهذه الموضوعات هي:

(١) مقدمة التحقيق للنصيحة الإيمانية، د محمد الشرقاوي ص٢٢ .

(٢) مزمور: ١/٨٢ .

(٣) الرد على النصارى، ابن ربن الطبري ص ١٠٥ .

- طبيعة المسيح بين اللاهوت والناسوت.
- أوجه التناقض والفساد في الإنجيل.
- مذاهب النصارى.
- شريعة الإيمان.
- معجزات المسيح والأنبياء.

وقام بتفصيل هذه الموضوعات من خلال الآتي:

- التغيير والثبات في حق الإله.
- الشريعة هل هي حق أم باطل؟
- هل المسيح هو الله ؟
- زمان المسيح ومكانه.
- المسيح ومدى علمه وقدرته.
- وجوه معرفة الله (اثنا عشر وجها لا يعرف الله إلا بها).
- عقيدة اليعقوبية.
- عقيدة النسطورية.
- فقدان المسيح للشرائط الإلهية.
- الرد على اليعقوبية.
- الرد على النسطورية.
- قلب النصارى للحقائق.
- شريعة الإيمان.
- أنواع الفساد والبطلان في شريعتهم.
- دلائل صحة الشريعة ونقضها.
- ألوهية المسيح بين الحقيقة والخيال.
- معجزات السيد المسيح.

- معجزات بعض الأنبياء.[1]

وبالرغم من صغر حجم كتابه إلا أنه عالج هذه الموضوعات بمنهج قائم على استقراء تام وشمولي للموضوع من مختلف جوانبه، وليس منهج انتقائي.

ومما يؤكد هذه السمة في ابن ربّن الطبري، أنه عند رده على النصارى في زعمهم بنوة المسيح عليه السلام لله قال: " وقد دعتني الغاية بهذا الأمر إلى أن تقصيت الإنجيل، وكتب يونس وغيره تقصياً، وقلبت جميع ذلك قلبا، فوجدت ذلك كله نحوا من عشرين ألف آية كلها تبوح وتنطق بإنسانية المسيح عليه السلام، وأنه مربوب مبعوث"[2] .

ثالثاً: الأمانة العلمية:

وهي إحدى السمات التي تميز بها ابن ربن الطبري، ومن الأمانة التي تميز بها، أنه كان في كثير من الاعتقادات التي عرضوا لها يعمد إلى ما يسلم به أهل الكتاب.

من تلك العقائد يقول ابن ربّن الطبري: "وأزيدكم إيضاحاً وشرحاً أرجو أن يزيد الله به الحق تأكداً ووجوبا ويزيد الباطن تهدماً واندثاراً، وأجعل ذلك في اثنى عشر وجها لا اختلاف بيننا وبينكم فيها، وأتأدب في ذلك، بما قال الله تعالى في محكم كتابه: " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ[3]"[4]

المطلب الثاني: أثر المنهج المعتزلي على أبي عثمان الجاحظ:

(١) انظر: الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ابن ربّن الطبري .

(٢) الرد على النصارى، ابن ربّن الطبري ص ٨٧.

(٣) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٤) الرد على أصناف النصارى، ابن ربّن الطبري ص ٦٥ .

إن القارئ للكتابات التي ألفها الجاحظ في علم مقارنة الأديان يجد تأثر الجاحظ بمؤلفات المعتزلة التي تهتم بإفساد عقائد الخصوم وإظهار ضعفها وخورها وعدم صبرها أمام الحجج الواضحة.

وفي الحقيقة أن المنهج الجدلي النقدي القائم على دحض وتفنيد شُبه الخصوم أفضل من المنهج الذي يكتفي فيه صاحبه بالتوضيح والتقرير فحسب.

لذا نجد الجاحظ استخدم في كتاباته أهم طرائق الإفحام الجدلي، ويمكننا تحديد طرائف الإفحام في المنهج الجدلي للمعتزلة التي استخدمها الجاحظ في الطرائق الآتية :

١-الطريقة الأولى: السبر والتقسيم:

وقد استخدم الجاحظ هذه الطريقة في جدله مع النصارى حول ألوهية المسيح فقال لهم: " لا يخلو المسيح إما أن يكون إنسانا بلا إله، أو إلها بلا إنسان، أو إلها وإنساناً....."[(١)]

" وتبدو أهمية هذه الطريقة في جدل المعتزلة مع المخالفين وحرصهم على استخدامها في ذلك عندما نعلم أن الجاحظ لم يتعرض في رسالته على النصارى لإبطال التثليث النصراني بالمنهج الجدلي إلا بهذا السؤال، قد اتبع طريقة السبر والتقسيم التي هي إحدى طرائق القسمة العقلية"[(٢)].

٢-طريقة تقسيم الكلام على الخصم:

وقد استخدم الجاحظ طريقة تقسيم الكلام على الخصم في رسالته عند الحديث عن قضية بنوة عيسى عليه السلام على سبيل التكريم، فإنه قسّم الكلام بأن قال : "إنه لا يخلو المولى في رفع عبده وإكرامه من أحد أمرين: إما أن

(١) المختار في الرد على النصارى، أبو عثمان الجاحظ .

(٢) مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي ص١٣٨ .

يكون لا يقدر على كرامته إلا بهوان نفسه، أو يكون على ذلك قادراً مع وفاء العظمة وتمام البهاء.

وقد استخدم الجاحظ هذا النمط في جدله مع الخصوم فى مواضع كبيرة ومسائل عديدة.

٣-طريقة التسليم الجدلي للخصم:

وقد استخدم الجاحظ هذه الطريقة في جداله لخصومه من أصحاب الملل الأخرى بسؤال عن زعم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان منجماً: "كيف يجوز أن يصير إنسان عالماً بالنجوم من غير أن يختلف إلى المنجمين أو يختلفوا إليه أو يكون علم النجوم فاشياً من أهل بلاده، أو يكون في أهله واحد معروف به.[(١)]

ويلاحظ مما سبق أن الجاحظ كان يسترسل مع الخصم في الجدل فيحاول أن يثبت خطأه استناداً إلى الأصول التي يعتمد عليها الخصم من تقرير عقيدته فيكون النقد أكثر تأثيراً.

٤-طريقة منهج عرض مقالات الخصم ونقدها:

إن من أوائل من وضح هذا المنهج في ثرائه الجاحظ، فقد بدأ رسالته في الرد على النصارى برد شبهات اليهود والنصارى على المسلمين، وقد أورد بعض حججهم في ثبت عقائدهم، ومن ثم قام بعرض موجز في الرد عليهم، ويبدو لنا أن هذا المنهج كان مقصده من الجاحظ، والذى يقرأ مقدمة الرسالة يقف على هذا حيث إن الجاحظ بعد أن انتهى من عرض مقالات المخالفين وسوق حججهم وإيراد شبههم حول الإسلام أراد أن يبين للقارئ عقب ذلك بقوله: "وسنقول في جميع ما ورد علينا من مسائلكم، وفيما لا يقع إليكم من مسائلهم بالشواهد الظاهرة والحجج القوية والأدلة الاضطرارية، ثم نسألهم بعد

(١) حجج النبوة، أبو عثمان الجاحظ ٢ ،٣٧ .

جوابنا إياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاص قولهم، وانتثار مذهبهم، وتهافت دينهم"[١] .

مما سبق يتضح أن الجاحظ قصد اتباع منهج العرض والنقد، وذلك لما في هذا المنهج من تأثير في نفس الباحث حتى يقنع بأن الكاتب محايد في نقله عن الخصوم [٢].

* *

(١) المختار في الرد على النصارى، أبو عثمان الجاحظ ص٥٨

(٢) انظر: مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي، د/ مختار عطا الله ص ١٨٦

الخاتمــة

ويمكن استخلاصها بالتالي:

تميز منهج ابن ربّن الطبري في بيان مزاعم النصارى بالاقتصاد على نصوص الكتاب المقدس، بهدف إقناعهم، وعدم الاستشهاد بالقرآن الكريم والسنة إلا مواطن يسيرة.

١-برز دور ابن ربّن الطبري في فترة نشطت فيها المدارس الكلامية.

٢-اعتمد ابن ربن الطبري في جدله مع النصارى على الدلائل العقلية.

٣-ظهر جلياً منهج المهتدين في نقد ابن ربن الطبري للنصارى لحاجة المسلمين إلى معرفة الديانة النصرانية من الداخل.

٤-تأثر أبو عثمان الجاحظ في رده على النصارى بالمنهج الجدلي للمعتزلة، واتضح ذلك بإظهاره طرائق الإفحام الجدلي.

٥-وظف الجاحظ التراث الاعتزالي في حسم كثير من القضايا العقائدية بين المسلمين والنصارى.

٦-اتضح دور الطبري في تأسيس الجدل الديني والحوار الإسلامي المسيحي في أواخر القرن الثاني، مما حدده من قواعد الجدل والحوار، وبما ابتكره من طرائق في معالجة كثير من قضاياه.

* *

ثبت المصادر والمراجع

١- الفكر التربوي في كتابات الجاحظ، محمد سعيد القزاز، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى.

٢- الخلافة العباسية أحمد شلبي مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الخامسة

٣- ضحى الإسلام، أحمد أمين، مكتبه النهضة المصرية، القاهرة ١٣٩٧هـ، ١٩٩٧م.

٤- تاريخ الإسلام السياسي والاجتماعي، حسن إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٣٨٣ هـ، ١٩٦٤ م.

٥- الجاحظ: دراسة عامّة، جورج غريب، دار الثقافة بيروت، الطبعة الأولى ١٣٨٧ / ١٩٦٧م.

٦- المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م.

٧- الحيوان، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٩م.

٨- الجاحظ : حياته وآثاره، طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م.

٩- البخلاء، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق طه الجاحري، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م.

١٠-معجم الأدباء إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١١-الفهرست، ابن النديم، تحقيق يوسف على الطويل، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م .

١٢-تثبيت دلائل النبوة، القاضي عبد الجبار، تحقيق عبد الكريم عثمان.

١٣-الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع، عبد المجيد الشرفي، دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.

١٤-مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية، د. محمد السحيم دار الفرقان للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

١٥-مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي، د مختار عطا الله، دار الهداية للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ - **٢٠١٥م.**

١٦- جهود على ابن ربّن الطبري في تأسيس مقارنة الأديان مع تحقيق مخطوطاته في الرد على النصارى، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، خالد عبده.

١٧- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل البغدادي دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٥١م.

١٨- تاريخ حكماء الإسلام، ظهير الدين البيهقي، تحقيق محمد كرد مكتبة الثقافة، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

١٩- موسوعة علماء العرب والمسلمين وأعلامهم، مصطفي الجيوشي، دار أسامة لنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٢٠- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، حاجي خليفة، تحقيق د. حمدي السلفي، مكتبة المثنى، بغداد ١٩٤١م.

٢١- الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ليبيا، الطبعة الأولى.

٢٢- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.

٢٣- المختار في الردّ على النصارى، مع دراسة تحليلية تقويمية"، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق د محمد الشرقاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١م.

٢٤- الرد على أصناف النصارى، ابن ربّن الطبري، تحقيق د خالد عبده، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٢٥- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم حسن، بيروت، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة عشر، ١٩٩٦م.

٢٦- تاريخ الحكماء، أبو الحسن جمال الدين القفطي، تصنيف، جوليوس ليبرت، ١٩٠٩م .

٢٧- تاريخ الدولة العباسية، محمد سهيل طقوش، دار النفائس، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠٠١م

٢٨- الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، لبيبا، الطبعة الأولى.

٢٩- أعلام العرب والمسلمين في الطب، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى.

* * *